توفيق الحكيم

يقظة الفكر

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١	ـ محمد ﷺ (سيرة حوارية)	١٩٣٦
٢	ـ عودة الروح (رواية)	١٩٣٣
٣	ـ أهل الكهف (مسرحية)	١٩٣٣
٤	ـ شهر زاد (مسرحية)	١٩٣٤
٥	ـ يوميات نائب فى الأرياف (رواية)	١٩٣٧
٦	ـ عصفور من الشرق (رواية)	١٩٣٨
٧	ـ تحت شمس الفكر (مقالات)	١٩٣٨
٨	ـ أشعب (رواية)	١٩٣٨
٩	ـ عهد الشيطان (قصص فلسفية)	١٩٣٨
١٠	ـ حمارى قال لى (مقالات)	١٩٣٨
١١	ـ براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية)	١٩٣٩
١٢	ـ راقصة المعبد (روايات قصيرة)	١٩٣٩
١٣	ـ نشيد الأنشاد (كما فى التوراة)	١٩٤٠
١٤	ـ حمار الحكيم (رواية)	١٩٤٠
١٥	ـ سلطان الظلام (قصص سياسية)	١٩٤١
١٦	ـ من البرج العاجى (مقالات قصيرة)	١٩٤١
١٧	ـ تحت المصباح الأخضر (مقالات)	١٩٤٢
١٨	ـ بجماليون (مسرحية)	١٩٤٢
١٩	ـ سليمان الحكيم (مسرحية)	١٩٤٣
٢٠	ـ زهرة العمر (سيرة ذاتية ـ رسائل)	١٩٤٣
٢١	ـ الرباط المقدس (رواية)	١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بيت النمل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شىء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د. إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ويندر ونشر دار ماكملان — لندن .

« صرير القلم اليوم .. هو
نفير الإصلاح غدا .. »

توفيق الحكيم

آخر ساعة ١٩ فبراير ١٩٢٩

فى الفكـــر

إيقاظ التفكير

جاءتني رسالة من أديب فاضل يقول فيها :

« ... قرأت فى إحدى المجلات نقدا عنيفا لقصة من قصصك ، فشرعت لتوى أعد دفاعي فى حرارة وإيمان . وما انتهيت منه حتى عجبت لنفسي .. فقد تذكرت أنى لم أقرأ هذه القصة بعد !.. ولكنني مع ذلك برمت وصحت فى ثورة انفعال : لماذا يصمت الحكيم هذا الصمت كله ؟ لقد كانت زلة . وإنى لأستميحك مغفرة لأن ثقتى بك لا يمكن أن تنال منها مقالات إلخ .. »

إنى أشكر هذا القارئ الكريم على هذه الثقة الغالية باعتبارى إنسانا .. ولكنى أرفض هذه الثقة باعتبارى كاتبا .. إن مهمة الكاتب ليست فى حمل القارئ على الثقة به ، بل فى حمله على التفكير معه .. ما أرخص الأدب لو أنه كان مثل السياسة طريقا إلى اكتساب الثقة ! لا . إن الأدب طريق إلى إيقاظ الرأى .. لا أريد من قارئى أن يطمئن إلىَّ ، ولا أريد من كتابى أن يريح قارئى ... أريد أن يطوى القارئ كتابى فتبدأ متاعبه .. فيسد النقص الذى أحدثت ..

أريد من قارئى أن يكون مكملا لى ، لا مؤمنا بى .. ينهض ليبحث معى ولا يكتفي بأن يتلقى عنى .. إن مهمتى هى فى تحريك الرؤوس ..

الكاتب مفتاح للذهن .. يعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعارف بأنفسهم لأنفسهم ..

إن مهمة الكاتب فى نظرى ، هى تربية الرأى ، لذلك أرى من واجبى أن أصمت دائما « هذا الصمت كله » عن نقد الناقدين ، فالناقد صاحب رأى .. فكيف أصده وأنفره ، بينما مهمتى فى إيجاده وتشجيعه ؟

قد يقول قائل إن من النقاد من يفسد فكرة الأثر الفنى بجهله أو تجاهله وبغرضه أو تحامله .. ولكنى أقول : حتى هذا النوع من النقاد يعاونون على تربية الرأى من حيث لا يدرون ولا يريدون .. فالمطلع على النقد أحد فريقين : فريق يسلم ويصدق دون بحث أو تمحيص .. وهذا فريق من لا رأى له ، أو من لم يهتم بعد بتربية الرأى فيه .. وفريق لا يقبل التصديق والتسليم قبل الرجوع إلى الأثر الفنى يطالعه حرا من كل قيد ليستخلص رأيا فيه بنفسه لنفسه ..

هذا الفريق الأخير ، على قلته فى بلادنا ، هو أساس المجتمع الحر ، الذى يسعى الأدب جاهدا فى إقراره وتقويته .

وما دام هدفنا تربية الرأى فيجب أن نترك الناس أحرارا ينقدون ... وبغير ذلك يكون مثلنا مثل ذلك الذى يكمم أفواه أطفاله ويضع فى أيديهم وأقدامهم الأغلال خشية أن يملأوا البيت صياحا ، وينهالوا على التحف تحطيما ..

إنه لخير عندى أن يحطم أطفالى تحفى ، وأن يؤذوا سمعى ، من أن أشل عضلاتهم وأعطل نموهم ..

إن الكاتب الذى يظن أن عمله انهار لقولة قائل وجهوده ضاعت لكلمة ناقد ، يهب جزعا فزعا يدافع ويفند ، لهو كاتب يخلط بين شخصه وواجبه ..

إن واجب الكاتب يحتم عليه أن ينزع شخصه من عمله .. وأن يدع هذا العمل لمصيره ينطلق وحده يحدث أثره فى الناس ..

وخير أثر يمكن أن يحدثه عمل فى الناس ، هو أن يجعلهم يفكرون تفكيرا حرا ، وأن يدفعهم إلى تكوين رأى مستقل وحكم ذاتى .

الفن إذن أداة من أدوات خلق الذاتية .

وهو لا يستطيع أن يؤدى هذه الرسالة إلا فى مجتمع حر ..

لذلك لم يخطئ أولئك الذين قالوا : « الفن هو الحرية » يجب ألا يقوم فى المجتمع حائل يحول دون تحقيق ذاتية الإنسان .

ويجب ألا يقتصر عمل الفنان على إمتاع الحس وإراحة الخاطر وتخدير الشعور ، بل يجب أن يرمى إلى إيقاظ التفكير ، وتأكيد الذاتية وتدعيم الشخصية ..

لذلك نرى الفن لا يزدهر عادة إلا فى مجتمع بزغت فيه عوامل الإحساس بحرية الرأى وذاتية الفرد ..

ونرى الفن لا يموت عادة إلا فى مجتمع خنقت فيه حرية الفرد ، وصودر فيه التعبير عن الرأى ، لأن الفنان يجد عمله معطلا عندئذ من ناحيتين : من ناحيته هو الذى لا يستطيع أن ينشئ فنا يوحى بتفكير حر ، ومن ناحية الناس الذين وقفت عقولهم ، فى هذا الجو الخانق ، عن النمو .

(يقظة الفكر)

فالجو الخانق إذن يصيب بالعطب والعطل ، فى عين الوقت ، أداة الإرسال وأداة التلقى !

وبهذا يتم الشلل الفكرى فى الأمة ، وتكف شخصيتها عن النمو والنضج ، وتظل بلا حراك فى طور بدائى من الرقى البشرى !..

من أجل ذلك أرى أنبل جهاد للكاتب هو فى سبيل المحافظة على أداة الفكر والرأى .. لأن هذه الأداة هى فى الكيان المعنوى بمثابة القلب مضخة يجب أن تعمل حرة على الدوام ، لتكفل النمو والنضج والرقى للنوع الإنسانى ..

(أخبار اليوم ١٩٤٩/٤/٢)

قضية الفن القصصى فى القرآن

(١)

رسالة جامعية يطالبون بحرقها

قامت فى مصر وإنجلترا فى وقت واحد حركة غريبة وهى مناقشة الكتب المنزلة ، وبحثها على أسس علمية ومحاولة اتهامها بالمبالغة ، وبأن ليس كل ما فيها من قصص ومعجزات يطابق الحقيقة والتاريخ الصحيح .

فعندنا قامت قيامة بعض العلماء على الأستاذ محمد أحمد خلف الله لأنه وضع رسالة قدمها إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد « القاهرة » عن « الفن القصصى فى القرآن الكريم » وقال فيها إن « قصصه لم تعتمد على أصل من واقع الحياة أو من التاريخ ، بل قد يكون ذلك من عمل الفن الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ، وإنما ينتج عمله ويبرز صورته على أساس الحقيقة الفنية والقدرة على الابتكار والتبديل » !

حرق الرسالة

ولقد طالب البعض بحرق الرسالة على مرأى ومشهد من أساتذة وطلبة كلية الآداب ، وطالب آخرون بفصل الأستاذ خلف الله ..

ورد الأستاذ خلف الله وفند هذه التهم .. وأبدى استعداده لحرق الرسالة لو ثبت اتهام المتهمين من أنه يدعو إلى الكفر أو يخرج بالناس إلى الإلحاد .

وقد طالبت إحدى الصحف باتخاذ إجراءات حاسمة وقالت « إذا ثبت أن ما نقل عن رسالة (الفن القصصي فى القرآن الكريم) قد ورد فيها كما نقل فلا يكفى أن يحرقها مؤلفها بيديه أو بيدى غيره على مرأى ومشهد من الأساتذة والطلاب بل لا بد أولا أن يعلن رجوعه إلى الإسلام ، وأن يجدد عقد نكاحه على زوجته إن كان متزوجا ، وأن يتوب إلى الله توبة نصوحا يحسن بها إسلامه فى مستأنف حياته ، وأن يقوم بكل ما يقوم به مَن ارتكب جريمة الردة عن دين الإسلام ثم تاب إلى الله منها .

سوابق فى مصر

وليست هذه الحركة هى الأولى من نوعها فى مصر ، فقد سبق أن ألف الأستاذ على عبد الرازق وزير الأوقاف (حاليا) كتابا « عن الإسلام وأصول الحكم » فقامت قيامة الأزهر ، واجتمعت هيئة كبار العلماء وفصلته ، واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زيور باشا احتجاجا ، وأقيل وزير العدل من منصبه — وكان عبد العزيز فهمى باشا — لهذا السبب .

وحدث مرة أخرى أن ألف الأستاذ الدكتور طه حسين كتابا عن

« الشعر الجاهلى » شكك فيه فى بعض المعتقدات ، قامت قيامة البرلمان ، وأراد مجلس النواب إخراجه من منصبه فهدد عدلى باشا رئيس مجلس الوزراء بالاستقالة حماية للبحث العلمى .

ومن العجيب أنه فى نفس الوقت الذى تقوم فيه هذه الحركة فى مصر تقوم حركة أخرى مشابهة لها فى لندن .

فقد تلقينا من مراسل « أخبار اليوم » فى لندن الرسالة التالية :

دخلت الأزمة الدينية فى إنجلترا مرحلة جديدة ، فقد نشرت جريدة الساندى بيكتوريال « من صحف العمال » وتبلغ مقطوعيتها ثلاثة ملايين نسخة ، الاستفتاء التالى لقرائها :

يقول المطران بارنز إن الشباب فى عصر العلم يؤيده فى عدم إيمانه بمعجزات المسيح .. فما رأيكم ؟

وهذه أول مرة فى التاريخ يستفتى فيها الشعب فى مسألة دينية خطيرة كهذه .

هل كانت مريم العذراء عذراء ؟...

وقد أثار المطران الإنجليزى بارنز فى كتابه « قيام المسيحية » موضوع أن المسيح قام بعد صلبه ، وقال إن قصة القيامة قصة وهمية ، كما أنه نفى أن السيدة مريم كانت عذراء !...

وأكد أنها لم تكن عذراء ، وأن سبب هذا الاعتقاد يرجع إلى سوء

ترجمة كلمة عبرية معناها « فتاة صغيرة » فاختلط الأمر على الناس وترجموا الكلمة العبرية إلى « عذراء » .

المعجزات إشاعة سخيفة

وقال المطران : إن أبحاثه أظهرت أن كل المعجزات هى إشاعات عامية سخيفة ، وأن الفن القصصى لعب دورا فى صياغتها .

كما نفى المطران قصص ولادة بيت لحم والهرب إلى مصر .

ونفى أن المسيح مات وهو شاب ، وأثبت أنه مات فى سن الخمسين ..

وقال المطران إن المسيح لم يكن إلها ، ولكنه كان رجلا صالحا يحسن الاقتداء به ...

رأى رئيس الأساقفة

وقد أثار كتاب المطران ثورة فى الكنيسة ، وطالبه أسقف كنتربرى رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية بالاستقالة فرفض ، وصرح كبير الأساقفة فى الصحف بما يأتى :

— إذا آمنت بمعتقدات المطران بارنز فلتؤمن ، وليكن المسيح معك ... ولكنها ليست معتقدات الكنيسة .

وقالت الصحف الإنجليزية إن هذا لا يصح أن يكون الرد على أبحاث المطران ، وأشارت إلى أن مؤتمر الكنيسة الذى اجتمع عام ١٩٢٢ واستمر ١٤ عاما قرر عدم الأخذ بحرفية الإنجيل ، وقد اختلف الأعضاء فى مسألة مريم العذراء ، ولكنهم قرروا أن « القيامة » أساس من أسس المسيحية .

الاشتراكية هى السبب

وقامت قيامة دوائر المحافظين لهذه الحركة ، وقالت إنها نتيجة طبيعية لانتشار مبادئ الاشتراكية والشيوعية التى تحاول أن تحطم كل شىء ، وفى مقدمة ذلك الأديان .

وقد أثيرت مسألة عودة تركيا إلى الدين ، وانتصار الجنرال ديجول ، وقيل إن هذا انتصار للدين فى وقت بدأت فيه الموجة المضادة الأخرى تحاول أن تسجل انتصارات لا دينية فى إنجلترا .

صاحب الرسالة يدافع عن نفسه

« أتحرر فى الأزهر ورجعية فى الجامعة ؟! »

إلى الأستاذ توفيق الحكيم

هذه قضية النكسة الجامعية أعرضها عليكم وعلى القراء :

فى مايو الماضى (١٩٤٧) قدمت رسالة لنيل درجة الدكتوراه فى

الآداب موضوعها « الفن القصصى فى القرآن الكريم » .

أحال عميد كلية الآداب هذه الرسالة إلى لجنة الفحص فآمن بها بعض وأنكرها آخرون .

كانت حجة المنكرين الظاهرة الخروج على الدين . ولما كنت أعلم بنوايا القوم ومقاصدهم الخفية فقد ألقيت بالرسالة بين يدى نفر من رجال الدين ليذكروا لنا حكم الله فى مفسر كتاب الله .

وهنا ظهرت الفروق الحقيقية بين العلماء .

أما الأستاذ الشايب أستاذ الأدب فى كلية الآداب فقد تقدم غير هياب ولا وجل وأفتى بأن صاحب هذا البحث قد ارتد عن دين الإسلام مع أن الأستاذ الشايب لم يتعلم من الدين إلا ما يمكنه من التدريس فى المدارس الابتدائية لبابى الوضوء والصلاة !

وأما الأستاذ الشيخ محمود شلتوت عضو هيئة كبار العلماء والمتخصص فى الدين فقد توقف حتى يتثبت من حكم الله فى مفسر كتاب الله .

ولم يقف عند هذا الحد بل أشرك معه فى الرأى المفتى السابق وعضو هيئة كبار العلماء الأستاذ الفاضل الشيخ عبد المجيد سليم .

ثم انتهينا إلى أن المفسر لا يخرج عن الدين إلا إذا خالف الإجماع فى تفسير قد تواتر تواتراً عملياً أو أنكر أن تكون هذه الآية أو تلك من كتاب الله .

أما غير ذلك فهو مجتهد إن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران .

ولما لم يكن القصص القرآنى محل إجماع من المفسرين فضلا عن المجتهدين من علماء الدين والفقهاء ..

ولما لم يكن القصص القرآنى محل تواتر عملى لقضية من قضايا الدين أو قاعدة من قواعد الإسلام .

فإن المتحدث عنه أو المخالف فيه يكون مجتهداً إن أخطأ فله أجر وإن أصاب فله أجران .

فما رأى الأستاذ الحكيم فيما بين هؤلاء وهؤلاء ؟

أليس يرى معى أن ذلك إيذان بالتحرر من ربقة الجمود فى الأزهر وأنه دليل الرجعية فى كلية الآداب ؟

إن الدراسة الجامعية لا تستقيم إلا مع الحرية ، وإنا لنعجب كيف يكون الأساتذة الجامعيون قادة الرجعية فى البيئات العلمية ، وكيف لا يشعرون بأن فى ذلك الخطر كل الخطر على التقدم العلمى فى هذه الديار !

ولعل العجب يأخذ حده ويبلغ منتهاه حين نعلم أن تلك الرجعية لا يقرها الدين ولا يرضى من رجاله العلماء .

هذه هى قضية النكسة الجامعية عرضتها عليكم وعلى القراء ، ولكل منهم أن يعلق على ما يشاء بما شاء .

والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد أحمد خلف الله

كلية الآداب — جامعة فؤاد

● إذا صح ما جاء فى هذا الدفاع من أن علماء الدين فى بلادنا قد أصدروا هذا الحكم المتحرر ، وأن رجال الجامعة قد أفتوا بذلك الرأى المتأخر .. فإن الأمر يدعو حقاً إلى العجب !.. ولقد اطلعنا فى عين الوقت

على تلك البرقية التى تروى خبر المطران بارنز وإنكاره لمعجزات المسيح .. فلم يعد يدهشنا أن نسمع بقيام أساتذة جامعة لندن يفتون بأن ذلك المطران يستحق الحرق حيا !

ما الذى حدث الآن بالضبط فى عقول الناس ؟.. رجال العلم الروحى يريدون الخروج إلى نور المنطق العقلى ، ورجال العلم العقلى يريدون الدخول إلى معبد النور الإلـٰهى ! إنه ولا شك عصر الجشع .. كل طائفة لا تقنع بما فى يدها وتنظر إلى ما فى يد الآخرين .. حتى فى المسائل العقلية والدينية كل هيئة تعتقد أن « الحقيقة عند غيرها ! » .

إنى أفهم موقف علماء الإسلام .. فهم يفتون طبقا لقواعد مقررة فى هذه الرسالة الجامعية ، وشاء لهم اتساع الأفق أن يضيئوا لنا النصوص القديمة بأضواء جديدة .. دون أن يحيدوا عن روح الدين .. وجوهر العقيدة . ولكن الذى لست أفهمه هو موقف أساتذة الجامعة العصرية الذين يحكمون بالكفر على طالب ، ويطفئون بأيديهم الجامدة مشعل الحرية الفكرية الذى هو صلب عملهم وعمود رسالتهم » .

ولئن استطعت أيضا أن أفهم هؤلاء فإنى لا أستطيع أن أفهم أبدا موقف المطران الإنجليزى بارنز الذى يحلل المسيحية كما يحلل تاجر الزيوت فن « روفائيل » أو نجار المسرح فن « شكسبير » !

لماذا يهدم المطران الوقائع التاريخية فى الدين ؟ وهو الذى يجب أن يعلم أن « الحقيقة » فى الدين أسمى من التاريخ ومن المنطق ومن كل العلوم العقلية ، لأن شمس « الحقيقة الدينية » لا يمكن أن توضع تحت مصباح

الذهن البشرى !..

هل يستطيع ناقد أن ينال من فن « روفائيل » لو أثبت لنا أن زيت لوحاته كان زيت خردل أو زيت خروع ! وهل يستطيع باحث أن يطعن فى فن « شكسبير » لو برهن لنا على أن « جولييت » ماتت موتا طبيعيا فى سن الخمسين أو أن « روميو » عندما تزوجها لم يجدها عذراء !.. ما قيمة كل هذا بالنسبة إلى « الحقيقة الفنية » ؟!

كذلك ما قيمة اكتشافات المطران بارنز بالنسبة إلى « الحقيقة الدينية » ..!

إذا كان هذا المطران رجل دين حقا ، لفهم ذلك ولكنه فيما يبدو لم يخلق للدين .. ولكن لمهنة أخرى .. وإنى أرشحه لمهنة « الصحافة » فإنه ولا شك قد خلق لها دون أن يشعر !

ولا أرى أسخف من القول إن مبادئ الاشتراكية والشيوعية هى المسئولة عن هذه النزعات ، وإنها تحاول تحطيم كل شيء حتى الأديان .. ذلك أن الأديان ، ولا سيما الإسلام والمسيحية ، ما نهضت إلا على أسس من الاشتراكية .. وما من شيء حطم جوهر الأديان فعلا غير الرأسمالية المتطرفة ، ومع ذلك فهى التى تزعم أنها تحتضن الأديان وتحتكر حمايتها ، بأساليبها البارعة فى الاحتكار ، لتستند إليها بعدئذ ، وتجعلها أداة استغلال !..

(أخبار اليوم ١٩٤٧/١/٢٥)

قضية الفن القصصى فى القرآن

(٢)

الأستاذ المشرف على الرسالة يقول :

إنها حق .. وألقوا بى فى النار

عندما عرض علىّ صاحب رسالة « الفن القصصى فى القرآن » قضيته التى سماها « قضية النكسة الجامعية » عجبت لأمر واحد : هو أن عالمين جليلين من علماء الدين : الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ شلتوت أفتيا له بالأجر ، وأن أساتذة الجامعة حكموا عليه بالكفر ! ولقد توجه إلىّ بقوله : « فما رأى الأستاذ الحكيم فيما بين أولئك وهؤلاء ؟.. أليس يرى معى أن ذلك إيذان بالتحرر من ربقة الجمود فى الأزهر وأنه دليل الرجعية فى كلية الآداب ؟ » .

ولكنى تلقيت بعد ذلك من العالمين الفاضلين إنهما لم يطلعا على نص رسالته الجامعية ، وإنما أدليا بفتوى عامة فى سؤال عام ، ولقد أثار هذا الموضوع عواصف من كل جانب ، ولقد أمطرنى البريد رسائل من كل إنسان ... وما من واحد قرأ حرفا من الرسالة الجامعية .. حتى ولا أنا ..

بالطبع !.. ولكن الأصوات ترتفع من حولى تصطخب وتصيح . بعضها يطالب بحرق الرسالة التى لم يقرأ .. والبعض يطالب بتجميد هذا البحث الذى لم يقرأ أيضا ...

وأنا فى وسط الطوفان ... لا أدرى أين الحقائق ؟ وأجد من يعدنى مسئولا عن الحكم فى هذا الأمر .. وأنا لا أضع يدى على وثائق .. ولا أملك من الوقائع ما يجيز لى التسرع فى إصدار الأحكام ..

لهذا رأيت خير الأمور أن أستوضح أصحاب الشأن عن جلية الأمر .. ولأرجع لحظة إلى سابق عهدى القضائى .. فالموضوع الذى نحن بصدده أخطر من أن يمر بلا تحقيق ، فهو موضوع يتعلق بحياتنا الفكرية .. بل أكثر من ذلك وأعمق .. إنه يتعلق بالصلة التى يجب أن تقوم بين حياتنا الفكرية المثمرة المتجددة وحياتنا الروحية الآمنة المستقرة !..

تذكرت أن « رسالة جامعية ، توضع لنيل الدكتوراه ، لا بد لها طبقا للتقاليد الجامعية من أن تعد تحت إشراف أستاذ جامعى .. فكيف ترك الأستاذ المشرف هذه الرسالة تعد ، إذا وجد فى موضوعها ما يمس جوهر الدين ؟! » .

إن المسئول الحقيقى إذن هو الأستاذ المشرف .. بل هو على الأقل الشاهد الأول الذى يجب أن يتكلم ..

وتحريت عنه فقيل لى إنه الأستاذ أمين الخولى الأستاذ بكلية الآداب .. فطلبته بالتليفون وسألته عما يعرف فى الموضوع ، فأرسل إلى الخطاب

الآتى نصه :

إلى الأديب الجليل .

تحية وسلاما ، سألتنى عن جلية الأمر فى رسالة « الفن القصصى فى القرآن الكريم » فهأنذا أدع الوقائع تتحدث :

منذ حوالى عشرين عاما وأنا أدرس القرآن فى كلية الآداب من حيث هو كتاب العربية الأكبر ، وقد اطمأننت إلى أن هذا الفهم الأدبى له يجب أن يتقدم على كل رغبة فى استفادة عقائد منه أو أخلاق ، أو أحكام قانونية . فاتخذت لهذا الدرس منهجاً أدبياً خالصاً أذعته ومضيت أضعه بين يدى طلبة الجامعة ، وأفرغ من نقدهم له وتمثلهم إياه ثم أتقدم لدرس موضوع من القرآن تطبيقا عليه . أدعهم بعده ليتابع الدرس من له رغبة خاصة فى درس هذا الكتاب العظيم .

وقد جعل غير واحد من الطلاب دراسته العليا فى موضوعات قرآنية فكتب واحد رسالته للماجستير فى « نشأة التفسير واتجاه تطوره » وآخر فى « وصف القرآن ليوم الحساب » وثالث فى « إعجاز القرآن » كما كتب محمد خلف الله افندى رسالته للماجستير أيضا فى « جدل القرآن » واختار رسالته فى الدكتوراه فى « قصص القرآن » .

واسمح لى هنا باستطراد يسير هو أننا حاولنا رد درس الجامعة للبلاغة إلى الميدان الأدبى وإبعاده عن الفلسفة وما أصاب البلاغة من جمودها وجفافها . فغيرنا من هذا الدرس ما غيرنا ودعونا البلاغة « فن القول » لنذكر دائما بأن الأدب قول فنى لا يخرج منهج درسه عن الأفق الوجدانى

فكان إيثارنا لهذا سبب تسمية رسالة اليوم « الفن القصصى فى القرآن الكريم » ..

تقدم خلف الله لدرس « قصص القرآن » على المنهج الأدبى الذى لا يمكن أن تعنى كلية الآداب بغيره . والقصص فى هذا المنهج لون من ألوان البيان ، وأسلوب من أساليب الأداء قد مضى فيه كتاب العربية الأعظم ، ومعجزتها القولية على خطة له هى التى حاول « خلف الله » تعرفها فى رسالته تفصيلا .. فعرض أول ما عرض لما بين التاريخ والقصص من صلة ، وما جرى عليه القرآن فى هذا ، واطمأن أخيرا إلى أنه ليس قصصا لتعليم التاريخ ، ولا سرد وقائعه مرتبة مستوفاة لتعرف منها الحقائق التاريخية ، ولذلك لا يلزم أن تكون كل حوادث القصص القرآنى قد وقعت ، بل منها ما هو تصوير وتمثيل للمعانى ، واطمأن لهذه النتيجة بالاعتماد على مقررات دينية لا أثقل عليك ببيانها ، فهى تتصل بالمحكم والمتشابه وما إلى ذلك ، وبحسبى أن أقرر لك أنها مقررات فرغ الأستاذ الإمام منذ أكثر من أربعين عاما من تقرير ما هو أوسع منها وأبعد مدى ، إذ انتهى من أن القصص القرآنى فيه ما هو مثل لا قصة واقعة ، ومن أن للمؤمن حق تأويل هذا القصص على أساس أن القرآن يعبر عن المعانى ويصورها بالحكاية وأسلوب الحوار ، كما فرغ من أن وجود شىء فى قص القرآن لا يقتضى صحته لأنه يحكى من حال الأقدمين الصحيح والفاسد ، والصادق والكاذب ، ولأنه يجرى تعبيراته على معروفهم ومنظورهم ولو كان خرافيا ، كوصف الشيطان فى قوله تعالى : ﴿ طلعها كأنه رءوس

الشياطين ﴾ ومس الشيطان فى قوله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ فليس فى هذا وصف لصحيح من أمر الشيطان أو مسه .. بل أول الأستاذ الملائكة بالأرواح والقوى ، والشياطين وإبليس بدواعى الشر ، وعرض فى بيان طويل لتأويل قصة آدم كلها فى سورة « البقرة » ثم أثر التأويل على التسليم بحقيقة هذه الأشياء والأحداث ، مقررا أن المؤول أعلى كعبا فى الإيمان ممن يسلم ، لأنه أكثر اطمئنانا ، وأقل تعرضا للشكوك .

تلك هى أم المسائل التى أنكرها من قرأوا الرسالة فى الجامعة ولم يجتمعوا لمناقشة فى ذلك كما يقتضى نظام تأليف اللجان لتقدير الرسائل ، ثم ما لبثوا أن اشتعلوا فى العناد فانطلقوا من طلبهم « تعديل بعض فصول الرسالة مع تقديرهم لجوانبها السليمة » إلى طلب « تطبيق أحكام الردة » على صاحبها !!

وتسرب الأمر إلى الخارج — بيد من لا أعرف — فتلقف ناس أخبارا طائرة ، وحكموا على ما لم يروا ، ولم يقرأوا ، بل أخفوا ما عرف ونشر ، فكتب من سموا أنفسهم جبهة العلماء ، أن خبرا نشر فى عددى ٧٤١ ، ٧٤٢ من الرسالة عن بحث « خلف الله » ثم لم يكذب ، فأصبح الأمر جد خطير ، وعدوه وباء أشنع من وباء الكوليرا .. من أن عدد الرسالة ٧٤٣ يحمل مقالا طويلا فى التكذيب ، وبيان استحالة مخالفة البحث للدين ..

وتوالى مثل هذا الاتهام على غير أساس ، وخلف الله يكذب ، ويبين ويتحدى فيضيع صوته فى ضجيج عامى أهوج ، وردد من ذلك المضحك

المبكى ، فلعل الأديب الفاضل قرأ ما كتبته هذا الأسبوع مجلة أدبية تلوم الجامعة على أن قبلت البحث فى القرآن تحت عنوان الفن .. ولعله قرأ ما أذاعه مفت قديم من أن صاحب البحث قال إن القرآن فن وصانعه فنان ، فهو كافر،ولا شك عند مسلم بكفره ! فما الفن يا ترى عند هؤلاء ؟

أيها الأديب الجليل ...

إن المحنة كما ترى عقلية ، وهذا أهون جوانبها .. ثم هى خلقية واجتماعية : خلقية لأسباب أيسرها أن الذين قرأوا الرسالة تقولوا عليها بما يستحيل أن يكون فيها .. واجتماعية تدفع مصر فى سلم الرقى من أعلى إلى أسفل : فجامعتها ترفض اليوم ما كان يقرر بين جدران الأزهر وينشر منذ اثنين وأربعين عاما ، وتخضع البحث للأوهام لا للإسلام .. و .. و ..

وأزهرها ، يسمع ويرى رجلا يعلن « أن ربه الله ، ورسوله محمد ، ودينه الإسلام ، وكتابه القرآن — وأنه إنما يفهم فى القرآن السماوى فهما ما ، بل يفهم فى متشابهه فهما ما » فلا يقال له أخطأت أو أسرفت أو .. أو .. بل يقال له — قبل أى تحر ، أو تثبت — كفرت ، ولماذا ؟ لأنك جعلت القرآن فنا !!

تلك إجابتى عما سألت ، فالأمر إنكار للحق الطبيعى للحى فى أن يفكر ويقول ،وإنه لحق عرفنا الإسلام يقرره ويحميه ، فلو لم يبق فى مصر والشرق أحد يقول إنه حق ، لقلت وحدى وأنا أقذف فى النار ، إنه حق

حق ، لأبرأ أمام ضميرى ، ولا أشارك فى وصم الإسلام اليوم هذه الوصمة .

والله يحمى الحق وهو خير الحاكمين .

أمين الخولى

شهادة الأستاذ الخولى خطيرة كما يرى الرأى العام ، وإنى أحب أن ألفت النظر إلى نقطة الخطورة فيها : تلك هى قوله إن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء منذ اثنين وأربعين عاما ! إذا كان هذا القول صحيحا ، كما يؤكد الأستاذ الخولى ، فلنا أن نطلب تعليلا لما صرنا إليه ، وعلى المسئولين من رجال الدين أن يوضحوا الموقف .

فإنه لا يرضيهم أن نرجع اليوم — فى عهدهم — القهقرى .. بعد نهضة إسلامية بعثها الأستاذ الإمام .

أما رجال الجامعة ، فقد اتهمهم زميلهم الأستاذ الخولى فى عقليتهم وخلقهم ، تهمة لا يدفعها عنهم غير دليلهم .. وهى إن صحت لكانت قديرة على هدم « التعليم الجامعى » من أساسه واقتلاع أهدافه من جذورها !!

اللهم لا تخيب أملنا كله فيما حسبناه نهضتنا !..

وبعد — فعلى الرغم من ذلك .. لا أحب أن أبادر أو يبادر معى الرأى العام بالحكم قبل أن يلم بأطراف الموضوع .. ويسمع على الأقل قول من تناولهم الأستاذ الخولى بالاتهام !..

(أخبار اليوم ١٩٤٧/١١/١)

قضية الفن القصصي فى القرآن

(٣)

أطالب رئيس الحكومة

النقراشي باشا بالاستقالة(*)

طلبت إلى الرأى العام فى الأسبوع الماضى أن يتريث معى ، ولا يتسرع فى إصدار حكم ، قبل أن يسمع على الأقل كلام من تناولهم الأستاذ أمين الخولى بالاتهام ، عندما أعلن فى ختام بيانه ، وهو أستاذ الأدب الإسلامى فى الجامعة : « إن المحنة عقلية ، وهذا أهون جوانبها .. ثم هى خلقية واجتماعية : خلقية لأسباب أيسرها أن الذين قرأوا فى « الكلية » رسالة « الفن القصصى فى القرآن الكريم » تقوّلوا عليها بما يستحيل أن يكون فيها .. واجتماعية تدفع مصر فى سلم الرقى من أعلى إلى أسفل ، فجامعتها ترفض اليوم ما كان يقرر بين جدران الأزهر وينشر منذ اثنين وأربعين

(*) فزع رئيس الحكومة النقراشي باشا من كلمة الاستقالة .. وخاطب رئيس التحرير : مصطفى أمين .. غاضبا من هذه الكلمة ، فقال له مصطفى أمين إنه يحترم كلمة الكاتب وما كان يمكنه أبدا أن يحذفها ..

عاما .. وتخضع البحث للأوهام لا للإسلام و ... و ... » .

هذا الاتهام الصريح لجامعتنا من أستاذ بها وعضو لجنة فحص الرسالة فيها .. كان لا بد أن يعقبه بيان من المسئولين فى هذه الجامعة .. وهذا ما كنت أنتظره وينتظره معى الرأى العام الذى يتتبع باهتمام هذا الموضوع الخطير .. ولكن الذى حدث هو أن الأستاذ أحمد الشايب أحد أعضاء لجنة فحص الرسالة وأستاذ الأدب بالجامعة ، اتصل بى وأخبرنى أنه يعد بيانا يوضح به حقيقة الأمر .. غير أنه عاد فى اليوم التالى واتصل بى أيضا ليخبرنى آسفا أنه منع عن الكلام منعا باتا .. وأنه مرغم إرغاما على الاكتفاء بتقديم هذا الخطاب الآتى نصه :

سيدى الأستاذ الحكيم

بعد التحية ، قد كنت على وعد أن أكتب إليك بيانا لحقيقة الأمر فى موضوع « الفن القصصى فى القرآن الكريم » ولرد هذه التهم التى وجهت إلىّ ، ولكننى منعت من الجهات الرسمية من الكتابة فى هذه المسألة ، وأحب أن أقول لك إنى لم أتهم أحدا بالارتداد عن دين الإسلام ولا أفتيت بذلك ، وكل ما فى الأمر أنى عرضت المآخذ التى تثير الظن فى هذه النقطة على الأستاذ المشرف ، وتركت له الحكم والتقدير . وعلى كل حال فإن هذه المسألة كلها من حق الجامعة : تقضى فيها بما ترى وفقا لتقاليدها ، وما كنا نحب أبدا أن تنزل إلى ميدان الصحافة فتثير هذا الجدل ، وتشوش الأذهان ، وسيعلم الناس حقيقة الأمر ومصيره عما قريب .

أحمد الشايب

وهذا كل ما انتهى إليه الموضوع !..

أستاذ يتهم الجامعة المصرية بأنها تخنق الفكر ، وتدفع مصر فى سلم الرق من أعلى إلى أسفل فتلوذ الجامعة بالصمت .. ويقوم أستاذ فيها يريد توضيح الحقيقة فتضع الجهات الرسمية كفها على فمه ! ولقد علمت أن هذه الجهات الرسمية هى السلطات الخارجة عن « الجامعة » !..

وبالأمس رأينا موظفا كبيرا يتهم وزارة المالية فى نزاهتها وكفايتها ، فتناولت الجهات الرسمية تقريره هو الآخر ولفته بحرص واحتياط فى أكفان الصمت .

أترانا أمام أسلوب واحد فى الحكم اليوم ؟.. كل إنسان يصفع الجهات الرسمية على خدها الأيمن تدير له الخد الأيسر صامتة ، على شرط ألا يرغمها على الكلام ، أو يضطرها إلى إجراء تحقيق أو يحملها على كشف حقيقة أمراضها فى وضح النهار ؟!

مهما يكن من أمر هذا الأسلوب فى السياسة والإدارة فإن على الجهات الرسمية أن تفتح فمها بإيضاح لحقيقة هذا الحدث .. والموضوع الآن لم يعد مخفيا عن الناس ، فالصحف تخوض فى الأمر .. والرأى العام موزع بين فجيعتين : فجيعة فى الجامعة المصرية التى كان يعدها روح النهضة الفكرية فى الشرق .. وفجيعته فى النهضة الدينيـة التـى كان يحسب « الأستاذ الإمام » قد بعثها نهائيا وأقام منـارتها راسخـة على صخـرة الإسلام ..

وقع هذا الحدث ، وتبعه ذلك الاتهام ، فاطلع الناس على هذه الكارثة

فى حياتنا العقلية والروحية : فجامعتنا ، لو صحت التهمة ، ليست أرقى من كتاب قرية ، ومنارة نهضتنا الدينية قد سقطت منطفئة فى بحار الظلمات ، بعد أربعين سنة من حياة « الإمام » !..

أمر خطير .. لست أدرى هل تشعر بخطورته « الجهات الرسمية » ؟! أو أنها ستعجب لو وصفنا إياه بالخطورة ، وستبتسم ماضية فى أسلوبها ، ناعمة بشعارها : « الصمت من ذهب » مصدقة مؤمنة بهذه الكلمة فى كل الأحوال ، مكتفية بالإغداق من هذا « الذهب » بغير حساب تملأ به الجيوب والعقول والنفوس والآمال !...

وأظن من الضرورى أن نذكرها بجهات رسمية أخرى وجدت فى مصر منذ نيف وعشرين عاما كان لها فى مثل هذا الموقف تصرف .. أخشى أن تصفه « جهاتنا » اليوم بالجنون أو الحمق .. فلقد ترك الحكم وزراء من بينهم عبد العزيز فهمى باشا احتجاجا على خنق حرية البحث العلمى بسبب كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق ، كما هدد عدلى يكن وكان رئيسا للحكومة بتقديم استقالته حماية لحرية البحوث الجامعية ، بسبب كتاب « الشعر الجاهلى » لطه حسين ..

أكان هؤلاء الرجال هازلين يوم وقفوا هذا الموقف ؟.. أم كانوا يعلمون أنهم يضعون بذلك أول حجر فى النهضة الفكرية لهذا الشرق ؟!

ولنا اليوم أن نتساءل : أين ذهبت جهود أولئك الأبطال جميعاً وفيم كانت تضحياتهم فى سبيل البحث العلمى ! هل كان يخطر فى بال أحد أن الجامعة التى بدأت تلك البداية ، تنتهى إلى هذه النهاية ؟!

نحن الآن لا ندرى على التحقيق ماذا جرى لهذه الرسالة الجامعية « الفن القصصى فى القرآن الكريم » ؟

الجامعة لا تريد أن تصدر بيانا فى الأمر .. لأن الجهات الرسمية تضع على فمها الكمامة المشهورة ..

هل رفضت الجامعة هذه « الرسالة » ؟ هل هى تراوغ وتماطل إلى أن تهدأ العاصفة ، فتستبعدها فى صمت وسكون ؟ هل هى حائرة محرجة لا تدرى ما تصنع فى ورطتها ، ولا تهتدى إلى حقيقة مهمتها ؟!

كان إذن على وزير المعارف ، وهو الرئيس الأعلى للجامعة أن يوجه جامعته إلى واجبها .. وأن يبيح لها التوجه إلى الرأى العام ببيان يدخل على النفوس الاطمئنان .

ولكن وزير المعارف هو أيضا جزء من هذه « الجهات الرسمية » التى تتحلى بذهب « الصمت » !

ممن إذن نطلب إيضاحا ؟!

لو لم يكن وزير المعارف رجلا جامعيا فى سالف الأيام لكان له عذر ، ولكنه كان من رجال الجامعة الأحرار .. بل كان فيما أعرف رجلا مشبعا بالنزعات المثالية .. ولقد كنا من أربعة عشر عاما صديقين ، يوم كان هو أستاذا بكلية الحقوق ، وكنت أنا مديرا لإدارة التحقيقات بالمعارف ، وكنا نتلاقى فى الأسبوع مرات ، ولم يكن له هم إلا التفكير فى تنشئة جيل الطلبة على البطولة فى الأخلاق والفكر والحرية(*) ..

(*) هو الدكتور عبد الرزاق السنهورى .

وقد عمل على إنشاء جمعية من طلابه تحقق هذه الأغراض اتهمتها « الجهات الرسمية » فى ذلك العهد بخدمة بعض الأحزاب ، وهى تهمة أشهد أنها إفك وزور ، وقد طوحت به تلك التهمة بعيدا عن الجامعة ..

ودارت الأيام دورتها ، ويد الزمن تنقل صديقنا من مقعد إلى مقعد حتى ألقت به آخر الأمر فوق كرسى الوزارة ، ولن نجتمع بعد تلك الأعوام .. ولكنى ما نسيت قط صورة ذلك الجامعى المثالى الذى كان يلهب طلابه حماسة فى ذلك الحين ..

أين ذهبت هذه المثل العليا اليوم ؟..

وأين تذهب كثير من المبادئ المثالية التى كان ينادى بها كثير من وزرائنا ؟..

لا أحد يدرى !..

ربما كان هو ذلك « الكرسى » ! لا بد أنه يحمل نوعا من الوباء ، خفى حتى الآن عن الدواء ، يجعل « المثل العليا » تنساب من الجالس عليه ، وتخرج منه ، ساقطة سائلة تحت أقدامه !

وبعد .. فلم نصل إلى شىء بعد .. رسالة ذلك الطالب الذى سأل النجدة لم تزل معلقة .. فى يد من ؟ يد القدر أو يد التأخر ؟ لا أحد يدرى !

واتهام ذلك الأستاذ للجامعة بأنها سارت أربعين عاما إلى الوراء .. لم يزل هو الآخر مكتوما .. بيد من ؟ يد الحكومة أو يد الجامعة ؟.. لا أحد يدرى !.. كل ما أستطيع أن أفعل هو أن أرجو رئيس هذه الحكومة أن

يتكلم أو يأذن بالكلام .. وألا يستصغر الأمر .. وأن يعلم أنه ليس هو الذى يخيف الإنجليز بصوته فى مجلس الأمن ، وبصمته فى مجلس الوزراء ، ولكن الذى يخيف الإنجليز هو هذه النهضة الفكرية التى اعتقدوا أنها تضىء من الجامعة ، وهذه النهضة الروحية التى اعتقدوا أنها سرت فى الشرق من مصباح الأستاذ الإمام !.. التقدم الفكرى والروحى فى مصر هو وحده مفتاح القضية المصرية .. وإذا جلت جيوش الاحتلال عن أرضنا .. فلأنها لا تستطيع البقاء طويلا أمام أشعة من الفكر والعرفان تعمى أبصارها !..

وإذا حسب المستعمرون حساب مصر ، فلأنهم يخشون تلك المنارة الفكرية والروحية أن تلاحقهم بأشعتها فى العالم العربى ! فالأمر خطير يا رئيس الحكومة إلى حد ، أطالبك معه بواحد من أمرين لا ثالث لهما :

إما أن تدرأ فى الحال الخطر المحيق بهذه « المنارة الفكرية والروحية » وإما أن تستقيل !..

(أخبار اليوم ١٩٤٧/١١/٨)

شعب الله بغير الله

لنرى حقائق الأشياء ، يجب علينا أحيانا أن ننظر إليها من بعيد .. ابتعد عن الصورة قليلا تجدها فوق الجدار مجلوة المعنى واضحة الخطوط . والبعد فى المكان أو فى الزمان سيان .. لهذا يحسن البحث فى ملفات الأمس إذا عرضت مشكلة من مشكلات اليوم .. فلا شىء يلقى ضوءا على الحاضر مثل الأشعة التى تأتينا من أغوار الماضى .. إن ما يكتب الآن عن الصهيونية كثير .. ولكننى عنيت بأن أرجع إلى ما كتب عنها منذ عشر سنوات .. لأرى وجهها فى جو لم يتلبد بعد بدخان المدافع ..

فى يوليو عام ١٩٣٨ ذهب إلى فلسطين صحفيان عالميان ، أحدهما أمريكى والآخر فرنسى طفقا يجوبان فى أنحائها ، يبحثان ويتحريان ، متنقلين من مستعمرة صهيونية إلى أخرى ، يحادثان أهلها ، ويدونان ما استرعى التفاتهما من ملاحظات .. دون أن يكون لهما من وراء ذلك مأرب غير طلب الحقيقة ذاتها ، ونشرها فيما يراسلانه من صحف .. قال أحدهما فيما كتب : « إن الصهيونيين ليقومون أمام العالم بتجربة مجنونة ! وحسب الذهن الأوربى أن يرى حياة هؤلاء الصهيونيين فى فلسطين ليدرك هذه الحقيقة .. وماذا نقول فى قوم يعيشون حياة مشتركة فى أدق تفاصيلها .. يعملون معا ، ويلهون معا ، ويأكلون معا ، وينشئون

أطفالهم منذ نعومة أظفارهم بعيدا عن جو الأسرة ، حتى يقتلوا فيهم كل عواطف البنوة الطبيعية .. وإنهم ليحيون على هامش الأديان ومبادئ الأخلاق ، كأنما يريدون عامدين أن يعارضوا « النوع البشرى » ! ولقد دفعنا هذا كله إلى أن نقف منهم موقف الحائر المتسائل : ما المقصود من هذا الأسلوب فى الحياة ، وإلى ماذا يؤدى ؟. أمفض هو إلى تكوين روح « الجماعة » فيهم أم إلى عودة روح « القطيع » ؟! ولماذا كان هذا هو مثلهم الأعلى ، فهل رأى أحد « مثالية » هى أشد عداوة « للإنسان » من هذا الضرب من المثالية ؟ وفى الحق إن شيوعيتهم ليست فى جوهرها إلا شكلا من أشكال التعصب الجنسى ، هى نوع من عبادة الذات « اليهودية » !.. إن كل مستعمرة صهيونية ليست سوى فرن مرتفع الحرارة تصهر فيه وتصنع فيه « الذات » كأنها ماسة .. ولا بأس بعد ذلك من أن تطرح القيم الإنسانية التى كانت دائماً موضع التقديس ، هملا فى ذلك الفرن كأنها وقود !..

لقد لخص « رينيه شووب » (وهو كاتب يهودى) الصهيونية فى فلسطين بعبارة واحدة فيها كل الدلالة على حقيقة حالهم :

« إن شعب الله يعود إلى فلسطين بغير الله !.. »

كذب إذن من قال إنهم من أجل الدين أصروا على إنشاء الوطن القومى فى فلسطين !.. ولقد وصف أحد الصحفيين منظر الصهيونيين ، وهم فى الطريق ذاهبون إلى العمل : « لكأنى بهم ذاهبون إلى الحرب » !.. فهم أيضا تتسم وجوههم بسيما ذلك النوع من التحدى ، الذى يبشر بقدوم

عهد جديد ، لا أثر للرحمة فيه ، ولا للذة الروحية ، ولا للأحلام ولا حتى للماضى ، وما قيمة الشرق إذن بغير الماضى ؟.. هذا الماضى الذى ليس هو ماضيه وحده . بل ماضينا نحن الأوربيين والأمريكيين .. ماضى البشرية كله .. ونحن إذ نطأ أرضه ، نشعر كأنما وطئنا الأرض التى عليها ولدنا .. وسرنا فى خطى الأولين والآلهة الأقدمين !! هناك حيث سار المصريون والحيثيون والفينيقيون .. أجيالا من قبل « إبراهيم » ! وإن التاريخ بوسائله الحديثة ، كلما توغل هناك باكتشافاته ، أيد الأساطير وما نفاها .. وأكدها وما بددها . وها هى أعمال الحفر التى يقوم بها العلماء فى الشرق الأوسط تعيد إلى الكتب القديمة هيبتها واعتبارها . نافضة عنها الشيخوخة .. متوجة مفارقها بتاج الشباب الدائم ..

لن يعرف إلى أين يذهب ذلك الذى لا يعرف من أين جاء !..

إن الماضى يصنع المستقبل ..

« إن الإنسان ليس أرقى من الحيوان إلا بعراقة تقاليده وعمق ذكرياته » .. إن الصهيونيين إذن ما أرادوا قط أن ينشئوا فى فلسطين وطنا تاريخيا .. وإنما أرادوا أن ينشئوا وطنا اقتصاديا .. إنهم يريدون أن يسيطروا صناعيا وتجاريا على تلك الحقول الخضراء الواسعة من حولهم التى يرعاها نفر ساذج فى رأيهم .. إنهم جاءوا للحرب لا للسلام .. جاءوا يخضعون لسلطانهم أقواما مسالمين ..

الصهيونية ليست أنشودة حالمة لجنس مضطهد .. كما استطاعت بحذق أن تفهم أمريكا .. ولكنها مشروع اقتصادى وسياسى .

(أخبار اليوم ١٩٤٨/٧/٣)

الساقية تدور

يروى الفيلسوف الصينى « لى هنز » هذه الأسطورة المملوءة بالحكمة :

فوق تلال غابة نائية كان يعيش رجل شيخ مع ابن له وجواد .. ففى ذات صباح هرب الجواد واختفى .. فأقبل الجيران على الشيخ يعزونه فى نكبته بفقد جواده .. فقال لهم الشيخ :

— ومن أدراكم أنها نكبة ؟

فصعقوا .. وانصرفوا واجمين .. ولم تمض أيام حتى عاد الجواد إلى صاحبه من تلقاء نفسه ، لا وحده ، بل مصطحبا معه عديدا من الخيول البرية .. فعاد الجيران إلى الشيخ فرحين مهنئين بهذا الغنم الوفير ، وهذا الحظ السعيد .. فنظر إليهم الشيخ بهدوء وقال :

— ومن أدراكم أنه حظ سعيد ؟

فسكتوا مذهولين .. وانصرفوا متحيرين .. ومرت الأيام .. وجعل ابن الشيخ يروض الخيول البرية .. فامتطى منها جوادا عنيدا ، فسقط من فوق صهوته إلى الأرض ، فكسرت ساقه ، فرجع الجيران مرة أخرى إلى الشيخ محزونين ، يبثونه الألم لما وقع لولده ، ويعزونه فى هذا الحظ العاثر ...

فقال لهم الشيخ برفق :

ـــ ومن أدراكم أنه حظ عاثر ؟

فانصرفوا صامتين .. ومضى العام ، وإذا حرب تقوم .. وجند الشباب ، وأرسلوا إلى الميدان ، فلاقى أكثرهم الحتف إلا ابن الشيخ .. فإن العرج الذى بقدمه أعفاه من الذهاب إلى الحرب ، وأنقذه من ملاقاة الموت !

إلى هنا تنتهى قصة الفيلسوف الصينى .. ولو أنه استرسل فيها لما فرغنا من تعاقب السعد والنحس على الحادث الواحد .. ذلك أن لكل شىء نهاره وليله ، يدوران حوله بغير انقطاع .. ولكن الإنسان فى نظرته القصيرة وذاكرته الضيقة لا يرى الحادث إلا فى جلقاته المنفصلة وأجزائه المتقطعة ونتائجه المؤقتة ، ومؤثراته المفاجئة . فعينه لا تستطيع أن تشمله فى جملته ، لأن جملته ممتدة فى الغد ، وعين الإنسان لا ترى الغيب ...

ولو استطاع إنسان أن يشمل بنظرته الأمس واليوم والغد .. وأن يتبع حادثا واحدا أو رجلا بالذات لرأى العجب .. فهذا الغنى الذى يملك الملايين ، سيرى أمواله قد بددها وريث .. وهذا الوريث سيكون له أولاد فقراء .. ومن هؤلاء الفقراء يخرج واحد ينشئ ثروة .. وهكذا دواليك .. يأتى المالك من العدم ، ويذهب المال فى العدم ، ويولد من السعد نحس ، ومن النحس سعد .. ساقية لا تكف عن الدوران ، ولا تقف طول الزمان .. ليس هناك فى حقيقة الأمر حظ زاهر ولا عاثر .. لأن الساقية الدوارة لا تبقى أحدا فى موضعه ، ولا شيئا فى مكانه . إن

ما نسميه « الحظ » ليس إلا وقوف نظرنا المحدود ، على وضع من الأوضاع فى وقت من الأوقات ..

وإن فرحنا أو بكاءنا لهذا الحظ ليس سوى قلة صبرنا على انتظار البقية .. شأننا فى ذلك شأن المشاهد لقصة تمثيلية .. إنه يضحك أو يبكى لكل ما يصيب البطل دون أن ينتظر ختام الرواية .. لعل أداة الشعور والإدراك فينا ، قد جعلت على هذا التركيب المناسب لحياتنا القصيرة ، فنحن نأخذ كل حادث يمر على أنه البداية والنهاية ، لا أنه الحلقة فى سلسلة طويلة ..

إن الإنسان الذى أعطى الحكمة ، ليس فى حقيقة الأمر إلا ذلك الذى أعطى العين التى ترى الأشياء فى جملتها لا فى جزء منها ، وفى تعاقبها لا فى وقوفها ، تلك العين التى تبصر الساقية فى دورانها .. وهذا ليس بالأمر الهين .. إنه للبشر من أصعب الأمور .. من أجل هذا كانت الحكمة فى الأرض نادرة .. لأن الحكمة وحدها هى التى ترى الساقية وهى تدور !..

(أخبار اليوم ١٩٤٩/٤/٩)

فى المـــرأة

فتياتنا فى الحرب

تخيلت البارحة أن الحرب أعلنت . فنهض فى الحال كل فرد بواجبه ، فتطوع الشبان فى الجيش المصرى المظفر ، ووضعت المواهب فى خدمة الوطن العزيز ، وحرت أنا قليلا فى نوع الخدمة التى أستطيع أن أؤديها لبلادى واحمر وجهى خجلا أن يكون نصيبى آخر الأمر الترحيل إلى قريتى أو الفرار إلى عزبتى . كلا هذا لن يكون . إن مثلى ممن أعطى فكره وحياته لبلده فى أيام السلم لا يمكن أن يضن بها فى أيام الحرب .. لا بد من ذهابى إلى خط النار . نعم سأذهب إلى خط النار حاملا .. حاملا ماذا ؟ أنا الذى لم يحمل قط مدية يبرى بها قلمه الرصاص . لكن مهلا .. هل الحرب كلها بنادق ومدافع ورصاص ؟ إنى أستطيع أن أدافع عن وطنى بقلمى الرصاص ، فلأذهب به إلى خطوط النار بصفتى مراسلا حربيا مثلا أكتب التقارير وأصف المواقع كما كان يفعل « كبلنج » فى جيش الهند .

وذهبت بقلمى ووصفت وكتبت وحررت واختزنت فى الذاكرة من المعلومات والمواد ما سوف يملأ مجلدات تدر علىّ آلاف الجنيهات أولا ، وتضمن لى الخلود ثانيا ، ولكن بينما أنا أراقب موقعة من المواقع وقد دفعنى حب الاستطلاع إلى نسيان الحيطة والحذر فابتعدت عن مواطن الأمن واقتربت من مواضع الخطر ، إذا رصاصة قد انطلقت تصفر فى الفضاء

قصفت قلمىْ الرصاص أولا ثم أرادت أن تقصف رقبتى ثانيا ، ولم أدر ما حدث فقد رحت فى غيبوبة لم أفق منها إلا فى سرير مستشفى القاهرة .

قرع سمعى ضجيج مشاجرة قرب سريرى ، وصوت طبيب يقول لممرضته :

— حقك علىّ يا زوزو هانم !

ولكن الست الممرضة وهى فتاة رشيقة مهندمة أنيقة ، لم تنسَ أن تصبغ شفتيها بالأحمر ، ولكنها نسيت أن حولها جرحى على شفا الموت الأحمر أجابت فى خشونة :

— أيوه انت لازم تعرف انا مين . الباشا .. بابا .

— مفهوم .. مفهوم لكن على كل حال اسمحى لى أنبهك للمواعيد . عملك يبتدئ الساعة سبعة وحضرتك قمت من النوم الساعة عشرة .

— وما له أنا متعودة على كده . وأنا مش خدامة .. أنا متطوعة .

— متطوعة علشان تؤدى الواجب مش عشان تدلعى . أنتم فاهمين المسألة دلع ، وواخدين الشغلة دى على أنها موضة مش على أنها واجب ، وكانت النتيجة انكم سبتم العيانين المساكين ينفلقوا لغاية حضرتكم ما تصحوا على كيفكم .

— إيه الكلام الفارغ بتاعك ده يا دكتور . أنا واحدة من الطبقة الراقية ، ما يصحش تقول لى كلام زى ده ، أنا عمر ما حد تأمر علىّ رايح انت تتأمر علىَّ !!.. بابا نفسه ما يقدرش يقول لى تلت التلاتة كام . وماما

كان . ومدحت خطيبى دكتور عظيم يلبسنى بيده الجزمة ، ويقدم لى احتراماته خمس مرات فى اليوم . ومع ذلك فين هم العيانين اللى انفلقوا لغاية ما صحينا ؟

— آدى واحد منهم كان حقك تستلميه من الساعة سبعة صباحا علشان تقدمى له الدوا خمس مرات فى اليوم !

وأشار الطبيب إلى سريرى . فالتفتت الفتاة نحوى وتنهدت وقالت :

— حكم علينا الزمان .

فانتفضت وقلت فى نفسى :

— وانا ما حكمش علىّ الزمان لما يسلمونى لبنت متدلعة زى دى ؟

* * *

انصرف الدكتور .. وبقيت الممرضة زوزو « هانم » تلاحظنى كما طلب إليها الطبيب ، ولكنها لم تطق صبرا على الوحدة دقيقة ، فما كاد الدكتور يختفى حتى ذهبت إلى باب القاعة ونادت فى « العنبر » المجاور :

— يا شوشو .

فظهرت ممرضة « هانم » أخرى من طرازها وقالت :

— إيه يا زوزو ؟

— تعالى يا أختى ندردش الا روحى طلعت .

— حقا يا أختى قُطعوا العيانين وقطعت ايامهم ، وحياتك لو كنت أعرف الحكاية تزهق كده ما كنت تطوعت ولو هبيت .

— ولا انا وحياتك .

— قال إيه نقعد طول النهار والليل نسقى أدوية ونشاهد أمراض ونماذج مجاريح .

— يا ترى ميمى فين ؟

— مسكينة سلموها ضابط كبير جابوه النهارده مكسر حتت وقاعده تلاحظه بعيد عنك لما داخت .

— بعيد عنى ازاى ما انتش شايفة انا رخرة فى الغلب إياه.الدكتور الثقيل سلمنى بسلامته الجريح اللى قدامك ده .. لسه ما نطقش من الصبح .. ومش باين عليه حاينطق فى يومه !

وأشارت إلى جسمى الممدد ، فلم أطق صبرا وفتحت عينى ووجدت فى نفسى القدرة على الكلام فصحت :

— أنطق أقول إيه ؟ تبقى روحى بين يدى زوزو وشوشو وموشو ورايح افلح . أنا توفيت وعلىّ رحمة الله !!

فذعرت الفتاتان وصاحتا فى وقت واحد :

— يا دهوتى !!

ثم تمالكتا وأقبلتا علىّ ، وقالت زوزو المنوطة بى :

— فقت خلاص ؟

فنظرت إليها بعينين واسعتين :

— أنا عارف ؟؟ بتسألينى أنا ؟ انت مش حضرتك ممرضة وتعرفى

على الأقل إذا كنت أنا فقت وإلّا لسه مغمى على ؟!

فحدقت زميلتها فى وجهى وقالت لها :

ــ كلام ياختى معقول هو يظهر عليه انه فاق ..

فقلت لها :

ــ يظهْر كده ..

فأسرعت زوزو إلى الدواء وأقبلت به نحوى قائلة :

ــ طيب حيث كده بقى تفضل خذ الدوا وبطل الدلع من فضلك .

فنظرت إليها مليا :

ــ أنا اللى ابطل الدلع ؟؟

فهمست زميلتها فى أذنها قائلة :

ــ ماللعيان بتاعك ده من دون العيانين قايم يتاكف كده على طول ؟

فقالت لها :

ــ أنا عارفه إيه ده ؟ علشان تصدق قلة بختى يا شوشو ..

ــ أنا كان فى مسألة العيانين ما عنديش حظ أبداً يا زوزو .

فنظرت إليهما متنهدا :

ــ كبدى على قلة بختك يا زوزو وسوء حظك يا شوشو !!

فجعلت كل منهما تحد إلىّ البصر دهشة وغضبا . وتحركت زوزو فجأة ومدت يدها إلى البطاقة المعلقة برأس سريرى فانتزعتها بشدة وأخذت تقرأ فيها البيانات الخاصة بى ، ومنها اسمى : وعندئذ لفظت

صيحة خفيفة وألقت على وجهى نظرة طويلة وهزت رأسها لحظة وقالت لزميلتها :

— انت عارفه ده مين ؟! دا ...

ثم همست فى أذنها بكلام لم أسمعه ..

وإذا صاحبتها تلفظ عين الصيحة وتتفرس فى وجهى مليا ثم تقول هى الأخرى هامسة :

— أيوه ، هو بعينه ولسانه الطويل !

— تعالى بقى نجننه وننتقم منه . أهو وقع فى إيدينا .

فسمعت العبارة الأخيرة وارتعدت صائحا .

— لأ اعملوا معروف أنا افضل انى أقع فى أيدى الأعداء ...

فأجابت الفتاتان :

— أعداء . وانت لك أعداء غيرنا ؟!

* * *

وهنا انقطع التخيل وارتفع الخيال ، وثبت إلى رشدى وقد أدركت خطورة مركزى إذا وقعت الحرب . فأنا وحدى من دون الناس أجمعين واقع فى الأسر ، واقع على كل حال . فأمامى عدو من الطراز العنيف وورائى عدو من الجنس اللطيف ! فإذا نجوت من قبضة أحدهما لم أنج من قبضة الآخر والعياذ بالله ..

(آخر ساعة ٢١ مايو ١٩٣٩)

بينى وبين « خصومى الشرفاء المعقولين » !

ما كادت تنشر فى هذا المكان قطعتى السابقة « فتياتنا فى الحرب » حتى قامت « الحرب » فعلا بينى و « بينهن » ، وترامت إلى أبراجى المقذوفات الآتية :

سيدى الأستاذ الحكيم

فتحت هذا المساء مجلة « آخر ساعة » وقد كنت طوال الصباح بالمصادفة أفكر فى أمرك (لما قرأته لك من رأى عن المرأة المصرية فى إحدى المجلات) فلم يدهشنى أن أجدك هنا أيضا مرة أخرى . على أنى لست أكتمك أنى صدمت هذه المرة صدمة شديدة . صدمت للصورة التى رسمتها يدك لمرضاتنا من فتيات الطبقة الراقية إذا نشبت الحرب . إنها سخافة . اسمح لى أن أقول إن ما صوره قلمك هراء ، وإنك قد بالغت وأغرقت فى المبالغة حتى وقعت فى الابتذال .. إن أحط فتاة فى العالم لا يمكن أن تتصرف أثناء الحرب هذا التصرف الذى نسبته إلى الفتاة المصرية ، لقد صدمتنى سخريتك اللاذعة وجرحتنى إهاناتك المؤلمة ، من أين جاءتك هذه الفكرة عنا ؟ ألا تراك تحكم على المصرية بناء على القليلات اللاتى شاهدتهن كما تقول لا يعرفن شيئا غير لعب « الكونكان » والقفز فى « البلاجات » وقيادة السيارات ؟. ثق أن أغلب المصريات

يعشن معتكفات فى حياة مغلقة ، فلم تتيسر لك فرصة معرفتهن وتقدير قيمة شخصياتهن .

ما رأيك فى « مبرة محمد على » ألم تحسن تنشئتها وإدارتها مصريات ؟ إنهن لسن عديمات النفع كما تظن . أنت تحسن الكلام عن الأوربيات ، ثق أننا نساويهن فى التعليم والتهذيب بل فى كل شىء ما عدا الحرية ، وهذا النقص فى الحرية أنتم سببه معشر الرجال . إن المرأة الأوربية محترمة وهى حرة التصرف . حرة التفكير حرة الحياة . أما نحن فأقل خطوة منا تنتقد أشد النقد . نحن نعيش فى أقفاص . لم هذه الحملات على المرأة المصرية ووصفها بالسخف والسطحية ، وفقد العاطفة والقلب ؟

نحن فى حاجة إلى زيادة الحرية للسجينات الفاضلات ، وللحد من الحرية الطائشات المستهترات . إننى أعترف أننا فى حاجة إلى حسن القيادة والتوجيه . وأن أمامنا أشياء كثيرة يجب أن نتعلمها . ما رأيك لو غيرت وقدت أنت خطوات المرأة وساعدتها وشجعتها ، بدل إساءتها ، عندئذ نصبح مدينات لك . كما نحن مدينات لقاسم أمين .

وبعد ، أنفترق صديقين ؟

مصرية

وصلنى هذا الخطاب بلغة إنجليزية سليمة، وقد ذكرت صاحبة الخطاب فى سطرين السبب فى ذلك قائلة: «ولا تظن أن كتابتى لك بالإنجليزية معناها أنى أجهل لغة بلادى. إنما أردت أن أختار أقوى الأسلحة فى محاربتك، والإنجليزية أطوع فى يدى الآن من العربية التى أرجو أن

أتقنها يوماً لأكتب بها إليك » .

ثم وصلنى فى اليوم التالى الخطاب الآتى بلغة فرنسية جيدة دون أن تذكر صاحبته السبب . ولكنه مفهوم طبعاً . فهى أيضاً قد اختارت نوع السلاح المناسب ... وما دامت الأولى قد آثرت لغة شامبرلين (رئيس وزراء بريطانيا) فلا يدهشنى أن تؤثر الأخرى لغة دلادييه (رئيس وزراء فرنسا) وهو تحالف طبيعى أخشى أن يؤدى فى « حربنا » الصغيرة هذه إلى نفس النتائج التى سيؤدى إليها فى الحرب الأخرى الكبيرة ... وإليكم ترجمة الخطاب مستهله برقة الروح الفرنسى المعهودة :

عزيزى الأستاذ الحكيم

أنت قاس على المرأة المصرية ، لماذا تلقى على عاتقنا خطأ أولئك اللاتى استثرن سخطك . إذ لا شك أنك قابلت أولئك المصريات الطائشات ممن سحرنك بجمالهن فى بادئ الأمر ، ثم وجدت بعد ذلك أنهن لا يتعالين إلى مثلك الأعلى . كم هى جميلة وممتازة امرأة أحلامك .. ممتازة وكاملة إلى درجة استحالة وجودها بالفعل . تقول « أنا عدو المرأة » لا ينكر أحد إخلاصك ، ولكننى أنا التى تحتقرها وتغمرها بظلمك المستمر ، أنا مصرية العصر الحديث أقول إنه لم يعرف أحد غيرك كيف يحب المرأة . لقد جعلتها فوق البشر إلى درجة أن أقل خطأ تكتشفه فى حقيقتها يصدمك !! الرجال الآخرون يتسامحون فى ضعفها ، إنهم لا يطلبون غير

جمالها ولا يتأملون من سخفها وطيشها . أولئك لا يعرفون ما تستطيع أن تمنحه المرأة . إن تسامحهم وتغاضيهم لأشد إيلامًا وإهانة من أقسى الانتقاد ، ولذلك فإننى لا أثور لنقدك و سخريتك . إنى أعطيك بعض الحق ، ولكننى أتألم من هذا الحكم ، ولست الوحيدة التى تتألم إذ ترى كيف أن المصرية الحقيقة مجهولة . إنه لا يسمح لها أن تسفر عن أفكارها وعواطفها إلا للأقارب أو أصدقاء الأسرة القدماء . أنا شخصيا لم أعرف فى حياتى البالغة الآن ٢٣ عاما إلا خمسة رجال:ثلاثة أقارب ، منهم قريب خطبنى ثم هجرنى من أجل راقصة . ثم عجوزان صديقان لوالدى . فإذا صح لى أن أحكم على الرجال بناء على هذه العينة ، لكونت عنهم فكرة أسوأ من فكرتك أنت عن النساء نحن فى سجن ومهما منحنا من أنواع التعليم والثقافة فإننا جاهلات أهم شيء فى الحياة وهى الحياة نفسها ، وكيف نعرف ونحن لا نعرف كيف نخاطب رجلا فى مجتمع من المجتمعات الفاضلة . لقد كان من نتيجة فقد حريتنا أننى حضرت مجتمعًا صغيرا محدودا فقدمت فيه إلى إخوة وأبناء أعمام بعض صديقاتى ، فلم يلبثوا أن وجدونى شبه بلهاء . نعم لقد أفزعنى حضور الرجال . فكانوا إذا وجهوا إلى كلاما احمر وجهى خجلا واضطربت نبضات قلبى ، وتمتمت وتهتهت بإجابات خاوية . تدهشنى أنا شخصيا وتزيد فى خجلى . كيف أستطيع وأنا على هذه الحال أن أجد أحدا يهتم بأمرى أو يأبه لشخصى ؟؟ كم من فتاة غيرى يحدث لها ذلك . فقد يجدن أنفسهن أحيانًا فى مجتمعات بها أوربيات يتألقن كالنجوم بحديثهن الشائق وشخصياتهن البارزة ،

ويتركتنا نحن المصريات الخاملات الخجلات فى ظلام الإهمال المهين .

إن ارتياد المجتمعات ، عود الأوربية معرفة الحياة وعلمها فن الحديث الذى يظهر من المرأة كل جمالها الروحى ، إن الرجل المصرى أنانى ، ضيق الذهن . وهو يحبسه المرأة المصرية فى البيت كأنها خادمة . قد حرم هذه المسكينة أكبر فرصة لتكوين شخصيتها باتصالها بالرجال الأكثر منها ثقافة وتجربة وخبرة.وإذا تجرأت مصرية وذهبت بمفردها إلى أحد هذه المجتمعات ، ففى اليوم التالى تراها مضغة فى أفواه العجائز وأصحاب الجرائد والمجلات .

نحن فى بلد يتذوق فيه الناس الأقاويل والإشاعات تذوقه « للملوخية ».

يلذ لى أن أبثك هذه الأشياء المؤلمة رغم أنك عدونا ، إننى لا أشعر بذلك فأنا لا أكاد أتصورك فى شكل بشرى ، أنت بالنسبة لى روح ، تفهم وتدرك كل ما أقول وما أحس . فأرجوا ألا تغضب لمحادثتى إياك طويلا ، فلئن كان لك من الصبر ما يحملك على قراءة خطابى هذا إلى النهاية ، فإنى أكون عاجزة عن شكرك لما أعطيتنيه من فرصة الترفيه عن نفسى الحبيسة ، بالإفضاء بكل هذا الكلام .

وأخيرًا أتسخر منى أيضا بعد ذلك ؟ افعلْ ما شئت لكن افهم جيدًا أن المصرية لم ترفع حجابها بعد . إنه ما زال على وجهها كثيفًا ثقيلا خانقًا ، ولا بد أن تمضى سنوات عديدة قبل أن تحرر المصرية نهائيا من هذه الأغلال التى تحطم شخصيتها .

« لا تظن بعد هذه الاعترافات أن فى مقدورى أن أكشف لك عن

اسمي الحقيقي . أعطني أنت الاسم الذى تراه : تافهة ، مغفلة ، ثقيلة .. الخ الخ .

* * *

اخترت هذين الخطابين من بين عشرات كلها لا يخرج عن هذه اللهجة المؤدبة اللطيفة ولا عن هذه الأفكار المعقولة الشريفة ، وهي كما ترى تتجه إلى قضية تكاد تكون عادلة ، أكتفي اليوم بعرضها ، عسى أن يتألف من بين المصريات « وفد رسمي » ينتزع للمرأة المصرية « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » من بين براثن الرجال غير الكرام .

(آخر ساعة ٩ يولية ١٩٣٩)

المرأة والأسد

قرأت فى إحدى الصحف التى تنشر فى مدينة برمنجهام ، بإنجلترا هذا الإعلان العجيب :

« مطلوب فتاة لتقليم مخلب بعض السباع التى ستعرض قريبا فى ملعب « سيرك » ببرمنجهام . أجرة حسنة . شروط ملائمة .

ملحوظة : السباع تفضل الفتيات السمراوات أو الحمراوات . »

ولست أدرى أهذا ذوق السباع حقا أم هو ذوق صاحب الملعب ! مهما يكن من أمر فقد علمنا نحن الرجال أن لنا منافسا خطرا هو « ملك الغابة » .

بقى أن نعرف رأى الفتاة السمراء أو الحمراء التى ستتقدم إلى منافسينا الخطرين . وتتناول أكفهم وتداعب مخالبهم ؟ ما شعورها وما قولها ! همنى أن أعرف ذلك بأى وسيلة وفكرت قليلا . فرأيت أقرب السبل أن ألقى هذا السؤال على « مقلمة الأظافر » فى حانوت حلاق . فذهبت إليها وطلبتها . فأقبلت والدهشة فى عينيها وكانت تتساءل : « ماذا جرى له اليوم ؟ » ، ذلك أنى أعرفها وأعرف المحل من أعوام ، وترانى أجىء لأحلق ذقنى أو أقص شعرى ، وأخرج على عجل وأنا أرمقها بنظرة شزراء ، كلما رأيت بين يديها رجلا خشنًا يلمع أظافره !. وقالت لى مرة

إنها تخاف من نظرتى وتسألنى ماذا جئت ؟ فقلت لها : كان يجب أن تبصقى فى وجه ذلك الرجل الذى يمد لمثلك أصابعه الرقيقة وأنامله الدقيقة !

فلما أقبلت واقتربت منى وتناولت يدى ، ورأيت على وجهها ابتسامة فهمت مغزاها .. وحركت شفتيها حركة أدركت معناها فأسرعت قائلا لها :

— لا ..لا تبصقى فى وجهى ! المسألة لها أصل .

— مانيكور ؟

— لا .. لا تفعلى شيئا .. إنى مُصر على رأيى . ولا أبغض شيئا مثل رؤية أظافرى تلمع وتبرق كأصابع النساء ! ولكن قصيها فقط قصا بسيطا .. وسأدفع أجرة « المانيكور » كاملا .. المهم هو أنى أريد أن أحادثك .

— حب وغرام ؟

— صحافة .

— ماذا تقول ؟

فلم أجبها ، ولكنى نظرت إلى لونها ولون شعرها ، وصحت كالمخاطب لنفسى : « ياللعجب » ! أراك منذ زمن ولا أفطن إلى لون شعرك .. أنت فتاة حمراء ! أنت المطلب والبغية .

— مغازلة ؟

— لا . إنى أتكلم بلسان غيرى ، أنت تمثلين بالضبط ذوق من هو

أعظم منى وأضخم وأخطر وأكثر وحشية !.

ـــ من هذا الرجل ؟

ـــ إنه ليس رجلا . إنه سبع .

ـــ ماذا تقول ؟

فأخرجت من جيبى الجريدة الإنجليزية وأريتها الإعلان ! فما كادت تقرؤه حتى ضحكت ، ونظرت إلى وجهها فى المرآة وقالت :

ـــ تعتقد أنى حائزة لكافة الشروط ؟

ـــ إن السباع كما قرأت لا تطلب أكثر من ذلك ؟

ـــ إنها ليست مثلكم معشر الرجال ، إنها فى غاية التواضع !

ـــ والآن .. أريد منك إجابة صريحة : هل تقبلين حقا أن تقلمى مخالب أسد ؟

ـــ ثق أنه شرف عظيم .

ـــ ألا تخافين ؟

ـــ ولماذا أخاف ؟

ـــ أنت المرأة الضعيفة ؟ أنت التى تصرخين فزعا لرؤية فأر صغير !

ـــ هذا صحيح . منظر فأر يرعبنا ، ولا يفزعنا أن نمسح على وجه أسد ، توافه الأمور تبكينا ، ونتجلد أمام أفظع الآلام ، هكذا نحن النساء .. وهذا هو الفرق بيننا وبينكم أنتم الرجال .

ـــ إنه التناقض ... خلق التناقض من ضلع المرأة !

ـــ سمه ما شئت ولكن تلك هى الحقيقة ، إنى لن أحجم عن إجراء

« مانيكور » كامل لسبع من السباع إذا طلبوا إلىّ ذلك .

ـــ يا للعجب ! أهى قوة فيمن افترضنا فيها الضعف ، بغرورنا ؟ أهى شجاعة فيمن ظننا فيها الجبن ؟ أم هو الضعف والجبن يخرجان عنصرا مضادا لهما . كما يخرج « البنسلين » من بعض الجراثيم !

ـــ ما شأن « البنسلين » فيما نحن فيه ؟ لماذا تعقدون الأشياء ، وتلفون كل شيء فى قراطيس من الكلام الذى تحسنونه ؟. نحن بكل بساطة خلقنا للترويض ..

ـــ ترويض الوحوش ؟

ـــ إذا شئت . وأنتم الرجال فصيلة من تلك الفصائل التى وجدنا لترويضها .

ـــ شكرا لك .

ـــ عفوا .

ـــ إذن لا يوجد عندكن فرق بين مخالب أسد وأظافر رجل ؟

ـــ أثناء عملية « المانيكور » لا يوجد فرق .

ـــ شيء غريب . كلها إذن حيوانات فى نظرك .. تمد إليك أيديها أو مخالبها صاغرة .. وإذا زمجرت أو تبرمت ، كفى أن ترمقيها بنظرة أو تزجريها بلفظة أو تسحريها ببسمة ، لتعود إلى الطاعة مؤدبة وديعة . سلاحك رقيق نفاذ فعال ، لأنه لم يصنع من القوة ككل الأسلحة .. بل صنع من نقيضه وهو الضعف . إنك تتسلطين على الرجل بدمعة وعلى السبع بصيحة وعلى الطفل بنظرة .

— وهذا هو معنى « الترويض » إنه فى جوهره روح « الأمومة » إن « الأم » هى الحقيقة الكبرى فى تركيب « المرأة » وبهذه العاطفة وحدها تتسلط على كل الكائنات .

سمعت ذلك دهشا من فم تلك الفتاة العاملة . كيف استطاعت أن تتحدث هذا الحديث وتأتى بهذا التعليل بغير حاجة إلى علم ولا تفكير؟ ذلك أيضا سر من أسرار القوة عند المرأة .

— بقى عندى سؤال : بماذا تعللين تفضيل السباع للسمراء والحمراء كما جاء فى الإعلان .

فحدجتنى بنظرة ماكرة وقالت باسمة :

— هذا سؤال يلقى على السباع . لقد سألتنى فيما يختص بى فأجبتك .

معقول . لأول مرة أسمع فيها من امرأة إجابة معقولة ! ولم أر بدًا من الانصراف .. فانصرفت وأنا أردد فى نفسى السؤال ولا أتلقى الجواب ؟ أه .. كيف السبيل ؟

وأين هو الصحفى الذى يجرى حديثا مع السباع ؟!

(أخبار اليوم ١٩٤٦/٥/١١)

المسوخات ..

سمعت سيدة مصرية تأمر طفلها بتحية رجل من الأسرة قائلة :

ــ سلم على « أونكل » !..

ثم استرسلت فى الحديث قائلة :

ــ « تانت » روحية مسافرة يوم السبت !..

فعجبت لذلك .. وقلت فى نفسى « أونكل » كلمة إنجليزية معناها « عمى » و « تانت » كلمة فرنسية معناها ، « عمتى » والعم والعمة كلمتان موجودتان فى لغتنا العربيـة والحمـد لله .. فمـا هى ضرورة الاستعارة والاقتراض ؟.. وما هو الداعى إلى الشحاذة والسؤال ؟!..

حتى يوم يغنينا الله عن لغة أجنبية نأبى إلا أن نمد لها يد الذل . لماذا نتمسح بكل ما هو أجنبى دون أن نشعر بخجل أو إذلال ؟..

تحدثت فى ذلك بعدئذ إلى صديق فقال :

ــ ليت الأمـر اقتصر على ما ذكرت ، هنالك نوع من السيدات المصريات والفتيات ، نصف حديثهن فيما بينهن بالفرنسية أو الإنجليزية بلا ضرورة ولا مقتض ، سوى ما قام فى ذهنهن من وهم بأن هذا دليل المرأة الراقية !..

يا للعجب ! أما زالت فى بلادنا هذه العقلية ؟.. دليل المرأة الراقية أن

تلوك فى فمها بضعة ألفاظ أجنبية بلا داع ؟! ألم ينبه أحد بعد سيداتنا وفتياتنا إلى أن هذا بالذات دليل المرأة التافهة ، فهى التى فى حاجة إلى مساحيق الكلمات الأفرنجية السطحية تلطخ بها حديثًا لتخفى تفاهة شخصيتها ؟!

أيتها المصرية .. اعلمى أن الزمن قد تغير .. ذلك الزمن الذى كنا نشعر فيه أننا ديدان وأن الأجانب هم الناس يوم كنا ننظر إلى كل ما يصدر عنا كأنه الحطة والابتذال .. حتى مزايانا التاريخية التقليدية كنا نستهين بها ، وحتى مباذله ومفاسده التى يخجل منها كنا نحن نحترمها ونكبر من شأنها . كان يكفى أن يهبط بلادنا أفاق ذو لكنة أفرنجية ، لتفتح له أبواب الرزق والتقدير والتبجيل . ما من أمة فى الدهر فعلت فعلنا : وضعت باختيارها على ظهورها البرادع ليمتطيها كل من يحمل جواز سفر أجنبيا !

الآن ونحن نريد أن نطرح من فوق ظهورنا البرادع ، وأن نطهر أرضنا من الاحتلال الأجنبى ، وأن نظهر للعالم أن لنا شخصية وقومية ، يجب على المرأة المصرية أن تفهم أن عليها فى ذلك واجبًا لابد أن تؤديه : يجب أن تكون لها هى شخصية وقومية حتى يكون لأطفالها وهم مصر الغد شخصيتهم وقوميتهم ، احترمى أيتها المرأة بلادك وأنشئى أولادك على احترام لغة بلادهم .

أسمع مع ذلك همسًا من قائل يقول فى أذنى :

— ألق بهذه النصيحة إلى أولئك الذين يلقون بفتياتهم فى أحضان بعض المدارس الأجنبية التى تستل قوميتهن وتضيع معالم شخصيتهن ، وتجعلهن

مسخا من نساء لا هن مصريات ولا هن أوروبيات .

ومن بين هؤلاء الآباء للأسف وزراء للمعارف ، يشيدون ببرامج المعاهد المصرية ، ويرسلون بعد ذلك أبناءهم وبناتهم إلى بعض هذه المعاهد الأجنبية ، شأنهم شأن صاحب المطعم الذى يعلن ويدعو إلى مطعمه ، بينما هو يتناول وجباته فى مطعم آخر !..

آه لضعف إيماننا بأنفسنا !..

هذا الداء يجب أن يستأصل أولا من الرأس .

لى كلمة أحب أن يسمعها وزير المعارف وهو على ما أعهد فيه من أصحاب الاتجاهات القومية والنوايا الطيبة والنزعات الإصلاحية : إن الجلاء العسكرى يجب أن يصاحبه « الجلاء المعنوى » لكل احتلال روحى يريد أن يجثم على أفكارنا وصدورنا ليمنعنا من تكوين ذاتيتنا ..

ولنقصر هذه الفكرة الآن على « تربية الفتاة المصرية » وهى الأم أى « ترسانة » الأمة التى تمدها بخير عتادها وهم أبناؤها ..

ما هى السياسة المرسومة لتكوين المرأة المصرية ، من السهل علينا إذا ذكرت « المرأة الإنجليزية » أو الألمانية أو الفرنسية أو الأمريكية أن ندرك فى الحال صفاتها ومميزاتها ومقومات شخصيتها المفروزة المستقلة عن غيرها ، فمتى نقول « المرأة المصرية » ونفهم من ذلك فى الحال كيانها المستقل وذاتيتها المنفصلة ؟ ما هو « النموذج » أو « التصميم » الذى وضعته وزارة المعارف لامرأة مصرية نموذجية ؟

لنا أن نرسل البعثات وأن نستقدم الخبراء وأن نتعلم من الأجانب وأن

نطلع على أحدث النظم وأن نسترشد بأكمل الوسائل ، ولكن المطلوب بعد ذلك هو إفراغ كل هذا فى قالب جديد هو من تصميمنا ، قالب نحرص فى صنعه على كل فضائل جنسنا ومزايا طبائعنا وخلاصة تجاربنا مع خير ضرورات العصر الحاضر ومستلزمات التطور العلمى والصحى والاجتماعى .

هذا القالب إذا وجد ، وهذا النموذج إذا وضع ، فهما كفيلان أن يملآنا اطمئنانا .. لا على مستقبل المرأة المصرية وحدها .. بل على مستقبل نهضتنا كلها ، فهو الذى سيوحد العقلية فى الأمة بأسرها .. ومتى تم ذلك ظهرت لنا فى الحال قومية موحدة وشخصية واحدة . « وحد عقلية الأم توحد عقلية الأمة » !.

(آخر ساعة ٢٦يونيو ١٩٤٦)

المرأة بعد ٢٠٠٠ سنة

أردت يوما أن أتخذ مهنة الفلكى لحظة ، وأن أسدد المنظار إلى النجوم وأطالع الغيب ، لأرى ما سوف يحدث للمرأة من تطور فى مستقبل الأيام .. وأستطيع أن أؤكد للناس أنى أبصرت الذى سوف يقع على وجه الدقة والتحقيق وهو الآتى :

فى سنة ٢٠٠٠ ميلادية — تظفر المرأة بحلمها ، وتنال المساواة بالرجل فى كافة الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية ، فلم يعد هناك ما يحول بينها وبين المناصب التى استأثر بها الرجل .. فهى تتولى الآن رياسة الوزارة وتؤلف وزارات بعض أعضائها من الرجال والبعض من النساء ، وهى تشترك فى الأحزاب التى ينضم إليها الرجال ، وترأس بعضها ، ولم يعد لها أحزاب نسائية خاصة بها ..

فى سنة ٢١٠٠ ميلادية — يصبح للمرأة الحق فى أن تعين قاضية فى المحاكم العليا وأن ترأس محاكم النقض ، وأن تكون فى منصب النائب العام ..

فى سنة ٢٢٠٠ ميلادية — تحتل المرأة المراكز العليا فى الجيش ، فهى تستطيع أن تكون قائدة ورئيسة لأركان الحرب . وهى تشترك بالفعل إلى جانب الرجل فى كل أعمال الحروب ، فهى تقود الدبابة والطيارة وتلقى

القنابل الذرية والصاروخية وتسدد أشعة الموت وتقود الأساطيل وتدير البوارج ، وتعين فى منصب الأميرال .. والمارشال فى البر والبحر والجو .

فى سنة ٢٤٠٠ ميلادية ـــ محيت الفروق تماما بين الرجال والنساء فى الوظائف العامة والخاصة .. وفى المظاهر الخارجية والداخلية ، فلم تعد هناك ثياب للمرأة وثياب للرجل .. واختفى الفرق بين شعر رأس المرأة وشعر رأس الرجل .. وقد أدى تعميم الخدمة العسكرية والألعاب الرياضية للجنسين إلى ظهور العضلات فى جسم المرأة وضمور الثديين ، وقسوة النظرة فى العينين ..

فى سنة ٢٥٠٠ ميلادية ـــ نقص النسل الآدمى نقصا مروعا ، فلم يعد هناك ما يغرى الرجل بالاقتراب من المرأة .. وزالت من الأذهان كلمة « السحر » أو « الفتنة » التى قيل فى الأساطير الشعرية القديمة أن المرأة اختصت بها منذ آلاف السنين .

فى سنة ٢٦٠٠ ميلادية ـــ وقع حادث عجيب أقام الدنيا وأقعدها ، فقد ظهرت بين النساء امرأة شاذة تركت شعر رأسها يسترسل على كتفيها فأحاط بها الرجال والتهموها بنظراتهم ، وتبعوها فى كل مكان دهشين معجبين إلى أن أنقذها من الزحام رجال ونساء البوليس ..

فى سنة ٢٧٠٠ ميلادية ـــ انتشرت بين النساء بدعة ترك الشعر وإرساله على الكتفين .. كما ظهرت بينهن « موضة » صنع ثياب خاصة بهن ...

فى سنة ٢٧٥٠ ميلادية ـــ وقعت لأول مرة منذ قرون حوادث

غرامية بين الرجال والنساء على النحو الذى ورد فى القصص والشعر القديم . ورفض كثير من النساء مزاولة الأعمال العامة رغبة فى الانقطاع لتربية ثمرة غرامهن .

فى سنة ٢٨٠٠ ميلادية ــ طغى جنون غريب على مشاعر النساء هى عاطفة « الأمومة » وكان من أثر ذلك ترك النساء أكثر الوظائف فى الجيش والقضاء والبوليس ، مفضلات حياة البيت .

فى سنة ٢٩٠٠ ميلادية ــ تطور جرىء فى المرأة قد وقع ، وهو يعد أجرأ حدث فى تاريخها .. لقد لبست المرأة « برقعا » أخفت به شطرا من وجهها .. فلم يظهر منه غير عينيها البراقتين ، وقد فتن بها عدة رجال .. انتحر بعضهم على عتبة بيتها غراما ...

فى سنة ٣٠٠٠ ميلادية ــ عمت بين النساء « موضة » لبس « البراقع » ..

فى سنة ٣٥٠٠ ميلادية ــ استقرت المرأة فى البيت .. ومحيت من الأذهان كل تلك الأفكار التاريخية العتيقة التى شاعت قديما عن خروج المرأة إلى المجتمع مشاركة الرجل فى أعماله ...

فى سنة ٣٩٤٦ ميلادية ــ عم الدنيا نظام الحجاب التام للمرأة ، فلم يعد هناك اختلاط بين الرجال والنساء ، ولم تعد تظهر المرأة فى مجتمعات الرجال ... وتم الفصل بين مجالس النساء ومجالس الرجال ... ولم يعد للخاطب حق الانفراد بخطيبته قبل الزواج ... وقد لوحظ فى ذلك الجيل أن العزوبة كادت تختفى وأن الزواج قد اشتد الإقبال عليه إلى حد غير

معروف منذ مئات الأعوام .. وأن الفساد الخلقى قد خفت وطأته ...

وهنا طرحت المنظار من يدى .. ولم أرد أن أمضى فى مطالعة الغيب ومشاهدة سنة ٣٩٤٦ خشية أن أتعرض لسخط أحزابنا النسائية المنادية بالتقدم والتحرر والتجديد وفضلت أن أعود فى الحال إلى سنة ١٩٤٦ حتى لا أتهم بالرجعية والتأخر والجمود !..

(آخر ساعة ١٩٤٦/٧/١٠)

سلاح المرأة الذى لا تستعمله

سألتنى سيدة هذا السؤال المحرج :

ـــ من هو المسئول أولا عن الهناء الزوجى ، الرجل أو المرأة ؟

ووجه الحرج فى هذا الأمر أنى إذا أردت الإجابة بالصدق والصراحة ، فإنى سأتهم حتما بمحاباة الرجل ..

قد يكون من الصواب والكياسة وحسن السياسة أن نقول إن الأسرة « شركة مساهمة » يقدم فيها كل طرف نصيبا معينا من الهناء ..

ولكن السؤال قد وضع من غير شك للحالات المستعصية . ومن بينها تلك الحالة التى يغفل فيها أحد الطرفين أو يتهاون عن تقديم القسط ، هل تفلس الشركة فى هذه الحالة ؟ أو أن هنالك رصيدًا مدخرًا أو « سلفيات » أو « تسويات » يجب أن يتحمل أعباءها الطرف الآخر عن طيب خاطر حتى ينقذ الشركة وييسر أمورها ويعيد إليها الثقة والثبات ، ويرد عليها مركزها الموطد الأركان ..

قالت السيدة على الفور :

ـــ ومن الطرف الذى يتحمل أعباء « السلفيات » و « التسويات » ؟

ـــ مركز الشركة ولا شك . أعنى المدير المقيم .. المركز طبعًا هو « البيت » . وإذا قيل « بيت » اتجه الذهن فى الحال إلى « المرأة » فهى

المديرة المقيمة التى تدير أموره وتدبر شئونه ..

ـــ حقًا المرأة هى مركز البيت ولكن ..

ـــ أكثر من ذلك .. المرأة فى البيت مثل الروح فى الجسم . من المسئول عن شقاء الجسم وعن هناء الجسم ؟ أليست هى الروح التى تحل فيه ؟.

فأطرقت السيدة لحظة تفكر . ثم رفعت رأسها قائلة :

ـــ والرجل ! ما وظيفته إذن فى هذا الجسم ؟

فقلت بلا تردد :

ـــ الرجل فى هذا الجسم هو الرأس .. الرأس المفكر .. الذى يعرف كيف يحتال على الرزق ، وكيف يأتى بالنقود ، ولكنه لا يعرف كيف يوحى بهناء أو شقاء .. تلك مهمة الروح .. كل شعور أو إحساس ينعم به الجسم أو يشقى هو من إيحاء الروح .. كذلك كل نعيم أو جحيم يحل فى البيت هو من وحى المرأة ..

ـــ ألا تعترف أن من الرجال من يأتون إلى البيت بالجحيم ؟

ـــ أعترف .. ومثلهم أيضا مثل الرأس الذى يتعب صاحبه .. ويكدر غيره بالأفكار المظلمة والخواطر القاتمة . ولكن الروح بضيائها وإشراقها تستطيع أن تبدد سحب الأفكار السود ، كذلك المرأة وابتسامتها وتسامحها ونبل قلبها تستطيع أن تطرد من بيتها أشباح الجحيم .

فقالت السيدة بارتياب :

ـــ رأس الرجل ليس هينًا إلى هذا الحد .. إن من الرؤوس ما لا يستطيع أن يحطمها الصخر !

فقلت باقتناع :

ـــ هذا صحيح .. من الرؤوس ما لا يحطمها الصخر .. ولكن .. ثقي أن كل الرؤوس يحطمها القلب .. ما من رأس وقف أمام قلب إلا كان القلب هو المنتصر ..

فأطرقت السيدة وهمست :

ـــ ربما كان هذا حقًا .. ولكن ..

فبادرت مقاطعًا :

ـــ لا تقولى « ولكن » .. المصيبة كلها : أن المرأة التى تعرف قوة القلب نادرة جدًا .. أكثر النساء يصارعن الرجال بسلاح الرجال . وتجعل رأسها يواجه رأسه .. وإذا وقف رأس أمام رأس فى بيت أو أسرة فالويل كل الويل لهذا البيت وهذه الأسرة .. إنه الشقاء والشقاق والعراك والنزاع .. رأس ضد رأس كصخرة ضد صخرة .. ولكن اجعلى قلبك هو الذى يتلقى رأس زوجك .. فالرأس إذا التقى بالقلب كالصخرة إذا ألقيت فى النبع .

(آخر ساعة ١٧ يونية ١٩٤٦)

أسعد زوجين

جلس يصغي بانتباه إلى جهاز الراديو وقد تصاعد منه صوت ناعم يذيع : « يوضع اللحم فى البرام .. ثم يغطى بالبطاطس .. وتفرى بصلة فريا ناعمًا جدًا .. وتحمر فى السمن حتى يصفر لونها ، فيضاف الدقيق ويقلب حتى يصبح ذا لون بنى فاتح .. ثم تزاح الصلصة من على النار وتضاف مع البقدونس والملح والفلفل والبهار ... » .

إلى آخر ما جاء فى برنامج التدبير المنزلى ذلك اليوم .. وكان ذلك المستمع الكريم يسمع بقلب يخفق هيامًا وفؤاد يطير شوقا ولعاب يسيل حنانًا . وبرح به الغرام .. والأذن تعشق قبل العين أحيانًا .. فلم يطق صبراً وقام إلى أهله يعلن إليهم :

ـــ لابد لى من الزواج بهذه المرأة ..

فسألوه :

ـــ هل تعرفها ؟..

ـــ لا أعرف إلا إذاعتها اللذيذة فى الراديو .. إنها تهز قلبى ..

وكان صاحبنا من أولئك الذين يخلطون بين القلب والمعدة ، فإذا سأله الطبيب يوما : أين معدتك ؟ أشار إلى قلبه .. وإذا سأله أين قلبك ؟ أشار إلى معدته .. وكان لابد للمرأة التى تريد اكتساب قلبه من أن تستولى

على المعدة أولا .. فإذا ملكتها ملكت كل شيء ..

وتمت مراسيم القران .. وجاءت ليلة الزفاف ، وأحيت الحفلة إحدى المطربات ، جعلت تغنى طول الليل « إحنا الاتنين والعين فى العين أهنا قلبين واسعد عريسين ... »

والعريس يتململ فى مقعده ضجرا من هذا الغناء ، ويود الكلام فى موضوع أعز عليه وألذ من هذا الهراء ..

وضاق صدره آخر الأمر ولم يحتمل .. فانحنى على عروسه وقال لها باهتمام :

حدثيني بعد أن وضعت اللحم فى البرام .. لقد قلت إنه يجب أن تفرى البصلة فريا ناعما جدا وتحمر فى السمن .. ما قولك لو أضفنا مع البصل شيئا من الثوم والكزبرة والكمون ..؟

فنظرت إليه العروس طويلا ولم تجب ...

ومرت الأيام الأولى من أيام الزوجية .. والعريس يتقلب على الشوق ويتقلى .. منتظرًا اليوم الذى تدخل فيه زوجته المطبخ ، وتلبس فوطتها وتشمر عن ساعديها ، وتطبخ له تلك الأصناف الشهية التى طالما شنفت أسماعه بوصفها اللذيذ فى الراديو ..

ودخلت الزوجة المطبخ أخيرا .. وزوجها يباركها ويسأل الله أن يحميها .. وعاد من عمله فى الظهر وهو يتلمظ ويقول : « صلوات الله على تلك التى ستسعدنى بالأكلة المثالية والطبخة النموذجية .. »

وانتظر ساعة ثم ساعة .. ثم كاد العصر يؤذن فخرجت الزوجة

النشيطة من المطبخ والعرق والهباب يسيلان معًا من وجهها وهى « مطبوخة » من رأسها إلى قدمها .. وقالت له :

ــ لا مؤاخذة ! أنا استسهلت خوفا من التأخير ، وعملت لك طبق بيض مقلى ...

فأخفى الزوج حسرته وكتم غضبه ومد يده صامتًا إلى طبق البيض المقلى كما قالت .. فوجد سمنه قد تبخر وبياضه قد احترق وصفاره قد تحجر .

ودقت الساعة الرابعة .. فبادرت الزوجة إلى ثياب الخروج فارتدتها وانطلقت مسرعة كأنها على موعد هام ..

وما وافت الخامسة والربع حتى سمع الزوج المسكين صوت امرأته الحنون يتصاعد من الراديو ، ويذيع على المستمعين المصدقين : « يوضع اللحم فى البرام .. ثم يغطى بالبطاطس .. وتفرى بصلة فريا ناعما جدا .. وتحمر فى السمن » إلخ إلخ ..

فأطرق الزوج مليًا .. ولم يعد يدرى ماذا يفعل :

هل يضحك ؟ هل يبكى ؟

(آخر ساعة ٢٤/٧/ ١٩٤٦)

القبح الجميل

هل توجد « معاهد للتجميل » من نوع جديد فى مستقبل الأيام ؟ إذا تغيرت فكرتنا عن « الجمال » فإن هذه المعاهد ستصبح ضرورة من ضرورات العصر .. ما من أحد يخطر له أن سلطان الجمال يزول يوما عن هذا الوجود . فإن عرشه أثبت العروش .. لأن فى يده ذلك الصولجان الخفى الذى يمس القلوب فتخضع وتطيع دون أن تناقش فى مصدر سلطة تلك القوة أو تجادل فى حق ذلك الصولجان أو شرعية ذلك السلطان ..

ولكن الذى قد يغيره الزمن ، وتتجه إليه بحوث الخبراء وتتناوله أيدى سحرة التجميل من العلماء والفنانين والأخصاء هو نوع من « الجمال » يمكن استخراجه من « القبح » كما يستخرج الماس من الفحم ..

أهذا ممكن الحدوث حقا ؟

ليس من السهل إقناع المرتاب بالدليل المنطقى ولكن ما من أحد منا لم يصادف فى حياته تلك المعجزة دون أن يتنبه لها ..

ابحث فى ذاكرتك فإنك لا شك واجد فيها نموذجا لامرأة قبيحة المنظر قابلتها يوما فملأت عينيك اكتئابا وصدرك ضيقا ونفسك انقباضا .. إلى أن فتحت شفتيها وتكلمت .. فكأن نافذة من النور قد فتحت .. وإذا الضياء يتدفق من جوفها فيضفى على وجهها حلاوة لم تكن .. وإذا

موسيقى الألفاظ فى فمها ورقة المعانى فى حديثها أيد سحرية خفية تعدل وتبدل فى تقاطيعها وملامحها وقسماتها ..

فالثغر القبيح قد حسن فجأة فى نظرك ، والأنف الطويل قد راق فى الحال لبصرك .. وإذا أنت تسائل نفسك فى عجب : ماذا حدث لهذه المرأة ؟

سؤال نلقيه على أنفسنا فى المسارح ، إذا أتيح لنا يوما أن نرى أستار « الديكور » الملونة عن قرب .. ما هذا « القماش » الرخيص و « الخيش » المرقع والطلاء الباهت ؟ أهذه حديقة غناء ؟ أهذه نافورة ماء ؟ فما تكاد أضواء المصابيح الوهاجة « البروچكتور » تنبعث حتى يختفى القماش والطلاء والخيش ، وإذا أنت حقا أمام فردوس يموج بالزهر النضر ونافورة مرمرية ينبثق منها ماء كأنه ندى الفجر ..

هنالك أيضًا لون من القبح ينقلب جمالا .. لا لانعكاس ضوء داخل عليه .. بل لسبب آخر : هو إشعاعه بنوع من الحرارة اللطيفة والدفء الجميل والرفق الحنون والاطمئنان المريح .

تلك امرأة مثل جوهر « الراديوم » إنها على غراره ليست جميلة المنظر ، كجوهر « الماس » ولكن قيمتها وحسنها فى ذلك الإشعاع الخلقى الذى يصدر عن طبيعتها الرحيمة الوديعة ، وطينتها الطيبة الخيرة .. وهى مثل « الراديوم » لا تستمد سلطانها من ذلك البريق الخارجى الذى يزهو به « الماس » ولا تصلح قلائد وأقراط وأساور تزين النحور والآذان والمعاصم بتألقها الظاهر .. ولكنها تستمد السلطة من ذلك المعين

العجيب الذى يبرئ من الأدواء ، وتستلهم القوة من ذلك الحسن الخلقى الباطنى الذى ينثر الراحة ويعجل بالشفاء ..

حسن يبهر وحسن يريح .. جمال يشقى وجمال يشفى .. وكلاهما يظفر بقلب الرجل ويؤثر فى مصيره ..

لا وجود إذن لأسطورة « القبح » الذى تخشاه المرأة أكثر من الموت ، فالقبح قد يتحول إلى جمال ، وإن عملية التحويل قد تصبح فى الغد ممكنة شائعة ، إذا أنشئت تلك « المعاهد » التى تدخلها الدميمة فتخرج مزودة بسلاح يعادل سلاح الجمال ، وسلطان يوازن سلطان الجميلات .

(آخر ساعة ٧ أغسطس ١٩٤٦)

الصحافة امرأة

قال لى رئيس تحرير « أخبار اليوم » إن أنشط مراسل للجريدة فى الخارج ليس رجلا .. بل امرأة .. هى تلك الصحفية الأمريكية التى تمد الدار بأغلب ما يحدث فى واشنجطن ..

لم يدهشنى هذا القول .. فأنا أعتقد دائما أن المرأة أصلح من الرجل فى الفرع الأهم من مهنة الصحافة .. وهو استقاء الأخبار .. فالصحفى فيما أعلم نوعان : « محرر » و « مخبر » والمرأة فى رأيى خلقت بطبعها « مخبرة » من الطراز الأول .

أذكر أن فتاة مثقفة سألتنى ذات يوم عن رأيى فى اشتغالها بالصحافة .. وهل هذا العمل يناسب طبيعتها باعتبارها امرأة ؟ فقلت لها : ثقى أن المرأة مخبرة صحفية بالفطرة سواء التحقت بجريدة أو التحقت ببيتها .. لقد كان « آدم » فى الجنة هادئا وادعا ساكنا لا يفكر فى شىء ولا يصل إلى عالمه أمر .. فمن الذى جاءه بالخبر الأول فى تاريخ الأخبار ؟ وأعنى به اقتراح إبليس أكل الفاكهة المحرمة ؟ أليست هى « حواء » التى نقلت إلى آدم هذا الخبر الهام ؟!

من الذى كان يسمع من « الحية » الكلام ، ويجرى معها « الأحاديث » ويستقى منها الأخبار ويفضى بها إلى آدم ؟ أليست هى حواء ؟

إنى أعتقد أن هذه الحادثة هى أول عمل صحفى منذ بدء الخليقة ..

وبهذا تكون « حواء » هى أول صحفية مخبرة ظهرت فى الكون قبل أن تخطر فكرة الصحافة على بال مخلوق ..

إن الصحافة فى دم المرأة .. وهى عندما لا تجد خبرا تنقله أو شخصا تستجوبه تعمد إلى زوجها فتفضى إليه بكل ما سمعت فى يومها وما رأت فى نهارها ..

أما إذا كان الزوج هو القادم عليها من الخارج ، فإنها تستقبله بالسؤال تلو السؤال : أين كنت ؟ ومع من كنت ؟ وفيم كنتم تتحدثون ؟ والويل له إذا تهرب من الإجابة متذرعا بالتعب أو راجيا تأجيل الحديث ، أو مؤكدا أنه لم يقابل أحدا ذا أهمية ، ولم يصادف شيئا ذا بال .. فإنها عندئذ تعامله كما لو كان وزيرا خطيرا يخفى عنها عامدا أسرار أزمة دولية ! فهى تضيق عليه الخناق وتحاوره وتداوره بكل حذق وبراعة ، فإذا أكد لها وأقسم أنه ليس عنده ما يستحق الكلام ، صاحت به : أهذا معقول ؟ كل هذا الوقت فى الخارج وليس عندك ما تقول ؟..

وتظل به تستحثه حتى يضطر المسكين إلى أن يلفق لها خبرا لم يقع .. ولكنها بسليقتها تدرك أن ما قال ليس له نصيب من الصحة . فتبتسم وتسكت متظاهرة بالإصغاء إلى أن يتورط فى سلسلة من الأكاذيب والمتناقضات ، فتمسك به متلبسا بالأكذوبة فيعترف ..

وهنا تقول له :

— لن أصدقك بعد اليوم .. كل أخبارك كاذبة !..

ــ ومن قال لك أن تتخذيني مصدرًا للأخبار ؟

ــ لماذا تخترع ؟ لماذا لا تقول الحقيقة ؟

ــ لأنه لا توجد حقيقة .. لا يوجد شيء على الإطلاق .. وأنت مصممة على أن تنتزعي مني خبرًا بأي طريقة ..

ــ أريد خبرا صحيحا لا اختراعا !

ــ لا يوجد .. قلت لك لا يوجد .. ليس عندي اليوم خبر صحيح .. لم يبق إلا أن أخترع ! وإلا فلأسكت سكوتا مطبقا .. وإياك أن تسأليني شيئا أبدا ..

ــ إذن اخترع .. هذا على كل حال خير من لا شيء ..

نعم إن الصحافة الإخبارية ميراث المرأة عن جدتها حواء .. فلتهبط ميدانها إذا شاءت ، ولتنقل من الأخبار ما أرادت ، ولتستق من المصادر ما وجدت ، ولن يعوزها اليوم أيضًا في الدنيا « إبليس » ولن تنقصها « حية » فإن محيط المجتمع من قومي وعالمي يعج ويضج بالأبالسة والشياطين والحيات والثعابين بأحاديثها ومغرياتها ومقترحاتها .

ولعل ملايين السنين قد علمت المرأة الآن الحكمة .. فلن تنقل « الخبر » الذى يخرج آدمها الجديد من « الجنة » .

(أخبار اليوم ٢٣/٧/ ١٩٤٩)

فى الشبـاب

حطم بيت الزجاج

« يمنعنى والدى من قراءة المجلات والجرائد على اختلاف أنواعها ، ولا يقبل مناقشة فى فائدة القراءة والاطلاع ، وكلما أبصر فى يدى مجلة مزقها .. وهو ينهانى عن مصادقة أى شاب ، حتى وإن كان مثقفا ، وهو يرتاب فى حركاتى وسكناتى ، ويخاف علىَّ .. وهو يريدنى أن أعيش كعابد فى صومعة .. لا يرانى الناس ولا أراهم ..إنى مشغوف بالقراءة ، فماذا أصنع لأرضى هوايتى وأرضى فى عين الوقت والدى الذى أكن له كل احترام ؟.. »

هذا والد يريد أن يربى ولده كما يربى ذلك النوع من الزهر فى بيوت الزجاج .. وأنا لست من علماء التربية للبشر أو للزهر حتى أبت فى هذا الأمر . ولكنى أعتقد أن كل كائن إنسانى أو نباتى لا يتعرض للشمس والهواء والريح والغبار ينشأ رقيق التكوين ضعيف البنيان ، يحتاج إلى دثار من العناية ليحيا ، وإلى جدران من الحيطة ليعيش ، ويكفى أن تحدث المصادفة فى تلك الدروع ثغرة ذات يوم لينهار ذلك الكيان عند اللمسة الأولى .. كلا .. أيها الوالد الخائف .. ليس هذا هو السبيل ، حطم بيت الزجاج .. وأخرج زهرتك ، وعرّضها برفق للشمس والهواء .. دع ولدك يقرأ ، ودعه يصادق ، ودعه يعيش ربيعه .

لا تخش لون القراءة التى يشغف به ابنك فى هذه السن المبكرة . إن

الطبيعة أعقل منك أيها الوالد ، إنها هى التى تغرس الميول فى النفوس ، وتلونها حسب الأسنان والأعمار ، كما تلون أوراق الأشجار ..

ففى الشباب يورق الخيال والشعور والعاطفة . وفى الكهولة يورق العقل والحكمة والتجارب .. ومن الخطأ أن يتحدى والد الطبيعة وأن يتغلب بغرسه على غرسها .. وأن يطلب فى ربيع العمر شجرا قائم الجذع صلب العود تحت عصف الريح وصفير النوء ..

ولكنها فيما يظهر قصة كل والد : إنه يحكم عليه بمزاجه ويقيس درجة حرارته « بترمومتره » .. وكأنه لا يستطيع له فهما .. كما لا يستطيع الشتاء أن يفهم الربيع . فهو يسخر من زهره الأبيض الطاهر ، فوق الغصون اللينة المخضرة ، ويهزأ من طيره الصادح ومن ليله المقمر ، ومن نسيمه المعطر .. ومن كل تلك الرقة التى يملأ بها الدنيا ذلك الفصل الرقيق .. إنها فى نظر الشتاء الصارم ضعف .. لأنه فصل العنف تصطرع فيه العناصر ، وتتعارك القوى ، إنه الحياة فى كفاحها الأكبر ..

أنا أيضا وقفت هذا الموقف من والدى رحمه الله وأنا فى الثانية عشرة من عمرى .. كنت أرهب أيام الجمع . لأنها الأيام التى يفرغ فيها لى ، يناقشنى فيما أقرأ وكان يتخير لى هو نوع الكتب التى يجب أن أقرأها .. وكان أخفها وطأة كتاب يحوى « المعلقات السبع » ضربت بسببه أوجع الضرب .. فقد كان والدى لا يكتفى منى بالحفظ عن ظهر قلب ، بل يريد منى أن أشرح له أبيات ذلك الشعر الجاهلى فى تلك السن ! وكنت إذا عجزت عجب لجهلى وحمقى ، ثم استشاط غيظا منى ، مدفوعا ولا ريب

بالخشية على مستقبلى الضائع ، وإذا يده تتناول وجهى بالصفع الثقيل فلا تتركنى حتى يسيل الدم من أنفى وهو يصيح بى :

— يا جاهل ! يا غبى ! أيوجد أسهل من هذا البيت لزهير بن أبى سلمى ! هذا السهل الممتنع يا أحمق !

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطـأ بمنسم »

ثم يهز رأسه إعجابا بالحكمة التى ينطوى عليها هذا الشعر .. حقا هذا شعر خليق أن يقدره والدى الذى حنكه الدهر وعرف من تجاربه حقيقة كل كلمة فى هذا البيت ، ولكن الذى يدهشنى الآن هو : كيف غاب عن والدى وقتئذ أن مثل هذا البيت لا يمكن أن يتصور حقيقته ذهن غلام فى الثانية عشرة ؟!

أترى كان المقصود أن أشرح البيت شرحا محفوظا كما ألقيه إلقاء محفوظا ؟! وما قيمة ذلك ؟ إن هذا لا يرفعنى عن الببغاء إلا مرتبة بسيطة ! ولكن المقصود فيما أعتقد أن يشرح الإنسان المعانى شرحا محسوسا .. بكل شعوره وكل إدراكه ، وكل إحاطته الشخصية لما يشرح ويفسر .. فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يطلب إلى غلام أو شاب أن يفسر إلا ما تستطيع تجارب سنه أن تلم به من مدارك وإحساسات .

ومن أجل ذلك يجب على الوالد والمدرسة تجنيب الغلام أو الشاب ذلك النوع من الكذب .. الكذب على نفسه وعلى غيره بتلقينه تفسيرات « موضوعة » لأشياء لا تدركها سنه .

لهذا أيضا يحسن بالوالد والمدرسة تمكين الصبى أو الشاب من قراءة

ما يناسب سنه من ألوان القراءات .

ولا تقلق أيها الوالد ولا تظن ابنك ، وهو اليوم غارق فى المطالعات التافهة اليسيرة ، سائرا منساقا فى تيارها إلى آخر العمر ..

إن تيار الحياة هو الذى يغير لون المطالعات .

وأنت نفسك أيها الوالد الذى تقرأ اليوم كتب الفلسفة أو مقالات السياسة والاقتصاد أو تعنى بالتاريخ أو بالأدب الرفيع أو بعلم النفس أو بعلم الرياضة ... كنت فى صباك شغوفا بقصص روكامبول أو أبى زيد الهلالى .. ولكنك لا تذكر ذلك العهد كأغلب الآباء ويخيل إليك أنك لم تقرأ قصة قط ، لأن تيار حياتك اليوم دفعك فى مجرى بعيد عن حياة الخيال وبدا لك عقلك وكأنه لم يعد يطيق هضم القصص ..

أيها الوالد .. اترك ولدك لسنه ..

ولا تضعه فى بيت من زجاج ..

(أخبار اليوم ٢٢/٣/ ١٩٤٧)

ناشئون حائرون

« ..أنا شاب طموح جدا وكسول جدا . أحب الراحة ، وبيني وبين الجمود عداء . أحب الهناء وأحب المال ، وأحب فوق كل هذا الفن ، خلقت هكذا فلا تلومني ... بل أنت خليق أن تعذرني .. ثقافتي المدرسية لم تكن عالية جدا .. إذ أنها تنحصر في الدراسة الثانوية المصرية ثم دراسة إنجليزية محضة في كلية سان چورج ، ولكن الثقافة التي اكتسبتها من مطالعاتي الشخصية كانت في يوم من الأيام عالية جدا إلى حد يحسدني عليه أقراني ، كل شيء كان يؤهلني للفن .. لكن وقع ما لم يكن في الحسبان : كان هذا من نحو عام ونصف ... في ليلة شتوية باردة ... إذ عرفت امرأة أوربية غنية .. عرضت على المال والجاه لأعيش بجوارها .. فحملني طموحي وكسلي على القبول ، حاسبا بهذا أني مستطيع بلوغ ما أتمنى ، فالمال يساعدني على اقتناء الكتب والقدرة على السفر ؛ والراحة تيسر لي فرص القراءة والكتابة والانصراف إلى فني ... ولكن عكس ذلك هو الذي حدث .. فإن هذه المرأة صرفتني عن الكتب والورق .. ومر العام دون أن أفتح كتابا أو أكتب حرفا .. لأن الكتابة والقراءة تضايقانها . إلى أن كان أمس إذ غافلتها وفتحت كتابا لك اشتريته هو « زهرة العمر » .. لقد شعرت بروحي تتصاعد من جديد إلى السماء ..

شعرت بأنه يجب أن أترك حياتى هذه .. ولكن إلى أين أذهب ..؟. ».

اذهب ما دمت شابا فردا طليقا إلى أى مكان تستطيع أن تنقطع فيه إلى الفن..أكسب اللقمة من عرق الجبين، إن طريق الفن ليس هينًا. إنه يتطلب منك ، كما رأيت فى « زهرة العمر » أن تضحى من أجله شبابك كله ، ولكنك فيما تقول شاب كسول وطموح فى عين الوقت .. وتلك مع الأسف علاقة لا تدمغك وحدك بل تدمغ كثيرين من شباب جيلك الجديد ! هذا الشباب الذى يريد أن ينال ولا يريد أن يعمل . فهو فى الجامعة لا هم له إلا المطالبة باختصار البرامج ، وزيادة الملاحق ، والحصول على ورقة يطرق بها باب الحياة منتظرا أن يفتح له فى الحال على مصراعيه !. فإذا قست عليه الحياةقليلا ضج وصخب وبكى واشتكى ..

هذا الشباب العاجز جعل كل بضاعته الكلام والشكوى والاتهام ولكن هنالك إلى جانب هذه الطائفة نوعًا آخر من شباب الجيل الجديد سار فى الطريق الحق .. وأدرك أن العمل وحده هو الذى يوصله إلى المجد .. فانكب على الدرس انكبابا عميقا وانقطع للعمل انقطاعا طويلا ... ونظر مليا فى تلك الآثار التى خلفها له من سبقوه .. ومشى فى السبل التى شقوها والطرق التى عبدوها له ومهدوها ... فأنتج هذه الألوان من الفن .. مما تطالعنا به الكتب والصحف .. يقرؤها الناس اليوم ويذكرون بالخير أسماء أصحابها الشبان الجدد !..

هذا الشباب العامل هو الذى اعتمد على بضاعة من خلقه وإنتاجه . فأين تريد أن يكون موضعك من هاتين الطائفتين ؟.. قلت : إنك كسول

طموح.. والكسل فى سنك جريمة ! أنت الآن فى مرحلة الفورة الأولى والوحى المتدفق ، وعندما يبيض شعرك سيرغمك فنك على التريث فى الإنتاج ..

لابد من أن تعمل الآن كثيرا .. إن الفن لن يرضى منك بأقل من شبابك كله ثمنا .. كلنا قد دفعنا هذا الثمن وعرفنا كيف ننكب على الورق أكثر من عشر ساعات فى اليوم .. أكثر من ربع قرن ! وإلا فكيف أخرجنا هذه الثلاثين من المجلدات التى تقرؤها أنت وأقرانك اليوم فنوفر عليكم كثيرا من جهد كان لابد منه لإقرار ما تراه من قوالب الفن ؛ تحملناه نحن عنكم وبذلنا فيه من أجلكم شبابنا الذى ذهب .. ولو عرفت ما ذقناه فى زهرة عمرنا من حرمان وما قاسيناه من مشقة . لهالكم صبرنا .. وربما اتهمتمونا بالغفلة .. وقلتم فيم كان ذلك الجهد ... وماذا كانت النتيجة ؟ لا شىء إلا أننا نعيش لنكتب للناس أشياء قد تصلح من أمرهم ، ونكتب لنعين الأجيال الجديدة من أمثالكم على أن تبلغوا فى الفن ما لم نستطع نحن أن نبلغه.وإن مدادنا لفى دمكم دون أن تشعروا .. وكتبنا معابر لكم وجسور دون أن تذكروا .. وإن لم نفعل غير ذلك لكفى به من واجب أديناه نحوكم ... وعليكم أنتم الباقى .. فامضوا قدما ولا تضيعوا وقتكم هباء ! أما جزاؤنا المادى على ذلك فليس أكثر من كسب لقمتنا بشرف .

والأدب فى بلادنا لا يمنح حتى الآن أكثر من اللقمة على شرط أن نعمل فى الصحف !.. أما جزاؤنا الروحى فلن نناله منكم .. لأنكم إذا أخفقتم

انهلتم علينا سبًا وحملتمونا التبعة !.. وإذا نجحتم .. ما حفلتم أن تبشرونا بهذا النجاح !.. ونحن فى حقيقة الأمر لا نطمع منكم فى شىء.. إلا أن تخرجوا قليلا بين آن وآن من طيش سنكم .. ولتبصروا واجبكم وتدركوا أن الخلق وحده .. الخلق لا الشكوى والإنتاج لا الاتهام .. والعمل لا الكسل .. هى كلها دعامتكم فى مستهل حياتكم !.

* *

وهذا شاب آخر يتهمنا نحن بالكسل :

« ما بال أكثر أساتذتنا من كبار الأدباء قد انصرفوا عن الإنتاج الأدبى إلى هذا النوع من الكتابة الصحفية ؟.. أين كتبكم ؟ ولماذا انقطعتم عن نشر الكتب .. خصوصا أنت والأستاذ المازنى ؟؟.. أهو الكسل ؟ أهذه خاتمة مطافكم ؟ أنستطيع أن نودعكم فى ذمة الله والتاريخ !! »

* * *

ليس منْ حقى أن أجيب هنا عن الصديق الأستاذ المازنى فأغلب ظنى أنه قد سئل مثل هذا السؤال من قبل وأجاب عنه ، ولكنى أجيب هذا الشاب بأننا لا نستطيع أن نكسل ، لسبب بسيط وهو أننا مضطرون إلى العمل .. ففى أعناقنا تبعات ..

أما انقطاعنا عن الإنتاج الأدبى والفنى فليس بالخطورة التى تتوهمها .. لقد انقطع « بول فاليرى » عن فنه عشرين عاما ، شغل نفسه أثناءها بأعمال أخرى .. فى حين أن آخر ما نشرناه نحن من كتب لم تمض عليه ثلاث سنوات .

ومن يراجع فهارس الكتب لأدباء العالم وتواريخها يجد أحيانًا فترات صمت بين كتاب وكتاب قد تصل إلى سبعة أعوام وأكثر.. فلا يعجب هناك أحد لهذا الانقطاع فينهض يولول وينتحب ويلحق هؤلاء الأدباء بالأموات ويستنزل عليهم الرحمات!..

فهم هناك يعلمون أن الفن ليس عملا منتظما يستطاع إنتاجه بالتحديد والدقة فى كل عام.. ولكن ظروف الفنان الخاصة ومشاعره لهما فى عمله دخل كبير وربما مرت به لحظة خاطفة كان لها فى قريحته أعظم تأثير، كما أنهم يعلمون هناك أن الفنان ليس آلة تسير دائما إلى الأمام. فآخر عمل لشكسبير ليس هو خير أعماله.. إنما الفنان كالطير، فى علو وانخفاض حسب تيارات الجو النفسى التى تصادفه، تريثوا قليلا أيها الشبان... وادرسوا تاريخ الآداب والفنون فى البلاد الأخرى!..

على أن الذى يبدو لى من خطاب هذا الشاب أن منشأ حيرته هو اشتغالنا بالصحافة!

لكأنه يقول: لقد اكتفيتم بما تكتبون فى الصحف؟ وفى هذا أراه على شيء كثير من الحق.. الصحافة هى سمة العصر، وقد احتوت الأدب اليوم فى كل مكان لا فى مصر وحدها.

ومثل هذا يقال عن السينما والإذاعة.. عمالقة ثلاثة تفتح اليوم أفواهها لتبتلع الأدب والفكر والفن وتهضمه وترسله بعدئذ كالرذاذ الخير العميم فوق ملايين الناس! عمالقة اليوم السنة الاشتراكية: الصحافة والسينما والإذاعة: أعداء ألداء لأرستقراطية الفكر وثقافة الخاصة وفن الصفوة!..

إنها تريد أن يكون الأدب والفكر والفن غذاء نافعًا للملايين!

(أخبار اليوم ٢١/٨/١٩٤٨)

تربية الرأى العام

من نتائج الحضارة الحديثة وآثار التعليم الشامل الموحد . ظهور ما يسمونه « الرأى العام » .. أى شعور الجماعة نحو موقف من المواقف ، وقرارها إزاء مسألة من المسائل .. وهذا الشعور وهذا القرار ينبعان فجأة وفى عين الوقت ، كأنهما خارجان من قلب واحد وعقل واحد .. لكأن هذا الرأى العام إذن كائن مستقل ، يخلق ويحبو وينمو إلى أن يصبح قوة ناضجة محركة موجهة ، تؤثر فى الدولة والمجتمع ، ويحسب لها الحكام والمحكومون ألف حساب ..

كيف يوجد هذا الرأى العام ؟

إنه يوجد كلما وجدت التربة الصالحة لظهوره .. وهذه التربة الصالحة هى الأمة الموحدة فى جنسها وعقائدها وتقاليدها وآمالها وأهدافها ..

وكيف يربى هذا الرأى العام ؟

إنه يربى كما يربى كل صغير بالتعليم الشامل الواحد الذى يكون العقلية الواحدة الشاملة .. بهذا النوع من التعليم يشب « الرأى العام » على تفكير واحد ، يمكنه من أن يبت فى مسائله برأى واحد سريع قاطع ..

لقد كثر التساؤل عن « الرأى العام » فى بلادنا .. وهل له وجود

حقيقى ؟

فى رأيى أن بلادنا من أصلح البلاد تربة لوجود رأى عام ناضج قوى .. ولكن الذى يعوزنا هو الاهتمام بتربية هذا المولود .. التربية التى تؤهله لأن يصبح كائنا مستقلا ، واقفا على قدميه ، يفكر بعقل واحد ، ويؤثر فى الدولة والمجتمع تأثيرا ظاهرا فعلا ..

التربة صالحة ولكن التربية مهملة ..

فكل شىء فى مصر يجعل من هذا المولود مخلوقا مشوها مضطربا مبلبل الفكر ، مشتت الرأى .. لأن كل شىء فى بلادنا له نسخ متعددة ، وأثواب مختلفة .. لدينا تعليم أجنبى وحكومى وأزهرى ودرعمى وجامعى وخارجى .. إلخ . ولدينا قضاء مختلط وشرعى ووطنى .. ولدينا أحياء أوروبية ، وأحياء وطنية ، وأحياء مختلطة ..ولدينا مطربشون ومعممون و« مقبعون » و « ملبدون » ولابسو الزى الأفرنجى والزى البلدى ، والزى المختلط .. أى طربوش ومعطف وجلباب .. أو « طاقية » و « بيجامة » و « قبقاب » ... إلخ ..

كل هذا الخلط فى أوضاع التعليم والتربية والإطار الذى يعيش داخله الناس فى بلادنا .. جعل لهم بالضرورة عقليات مختلفة .كل عقلية تفكر تفكيرا خاصا وترى الدنيا من زاوية منفردة .. وكان من أثر ذلك أن حبس كل فرد داخل حلقة منفصلة من وضعه الذى نشأ عليه .. يحسب الدنيا دنياه ورأيه هو وحده الذى على حق . لا يفهم جاره ، ولا يشعر بشعور مواطن آخر .. وبتفكك عقلية الأمة الواحدة إلى عقلية الرأى العام الموحد

إلى عقليات متعددة مختلفة متضاربة يتم تفكك الشخصية لأمة من الأمم ..
وإذا تفككت شخصية أمة فمعنى ذلك انحلالها وموتها .

لذلك كان من ألزم الأمور لنا المبادرة إلى الاهتمام بتربية « الرأى العام » .. تربية قوامها توحيد ثقافته الأولى وتوحيد محيطه ونظرته إلى الأشياء .

إذا عنينا بهذه التربية الموحدة العناية الصادقة ، ظفرنا بعد قليل بأمة قوية الشخصية وبرأى عام موحد الثقافة ، متحد فى العقلية .

(أخبار اليوم ٣٠/٤/ ١٩٤٩)

تبعاتنا نحو الشباب

عندما كان يقول لى أحدهم أن للكتابات أثرًا فى تفكير الشباب ، كنت أسمع هذا القول ، ولا أجد فيه بأسا ولا خطرا .. لم أكن أتبين عندئذ أن هذا كلام يجر إلى تبعة من التبعات .. ولكن .. يظهر أن ليس أخطر من إنسان يؤثر فى عقل إنسان غيره !

رأيت كثيرين من الشبان ينزحون اليوم إلى بلاد الغرب فى طلب العلم ، فيصطدمون بحياة أخرى وحضارة أجنبية .. فإذا هم ، لدهشتى ، يفكرون ويشعرون شعور « محسن » وتفكيره فى كتاب « عصفور من الشرق » يوم ذهب منذ ربع قرن إلى الغرب .. يرون مثله فى الأمريكى رجلا لو فتحت صدره لوجدت « دولارا » فى موضع القلب ! ويهيمون مثله باحثين هناك عن « الروح » وتسيطر على تفكيرهم مثله فكرة واحدة : هى روحانية الشرق وعظمتها ومواضعها ومنابعها .. ثم يسيرون خلف « محسن » الآخر فى كتاب « عودة الروح » ينقبون كما نقب عن منبع ميراثهم الثقافى والروحى فى « رواسب » الآلاف من السنين الكامنة فى ضمير مصر ، ريفها وأهلها الصادقين .. ويعتزون مثله بأصالة الشعب المصرى ويرددون ألفاظه المباهية بعراقة حضارته .. الخ ..

أمن الخير أن ندع هذا الشباب يهيم فى مثل هذه المشاعر والأفكار ؟ أم

أن من الخير أن نصده عنها اليوم قليلا ونقول له : لا تسرف فى تقديس ماضيك ، ولا تجعل مركب النقص الذى استولى على نفس «محسن» يستولى عليك ، فتخاف على حضارتك المغلوبة أن تغزوها الحضارات الغالبة .. اغترف بشجاعة من كل منبع ، وخذ من كل ميراث .. لتثرى نفسك ويتسع افقك ! » .

قلت ذلك بالفعل لأديب مثقف .. فقال :

— لن نتبعك فى هذا القول .. نحن نفضل أن نؤمن بمحسن الصادق ، هو الذى يعبر عن شعورنا الحقيقى !..

فقلت باسما :

— تتركنى وتصدق كتابين سخيفين ، وضعا فيما مضى .. ليس فيهما من الفن والكمال ..

فقاطعنى قائلا :

— إن « آلام فرتر » لجوته قاصرة فى فنها ، ناقصة فى براعتها وإتقانها بالقياس إلى قصص « سومرست موم » و « توماس مان » ولكن قيمة الكتب ليست أحيانا فى كمالها الفنى ، بل فى استطاعتها أن تعيش فى حياة طائفة من البشر ..

عندئذ قلت صائحا :

— ها هنا تبعة الكاتب الكبرى ! إن عقوبة الشنق والحرق قليلة على كاتب يجعل جيلا يعيش فى أفكار ضارة أو خطرة !

ووجه الضرر فى أفكارى القديمة هى أنها تجعل الشاب يتخذ من

روحانيته الشرقية ورواسب حضارته المصرية سجونا وحصونا تعزله عن تفكير العالم ، وتمنعه من المساهمة فى النشاط الفكرى الإنسانى العام بقوة وشجاعة ، دون أن يرى بهلع فى الثقافة الغربية أو الحضارة الأجنبية غيلانا تستطيع أن تخطف بسهولة روحه من بين جنبيه !

إن روحنا أقوى وأعمق من أن تطغى عليه حضارة من الحضارات .. فلماذا كل هذا الخوف من مواجهة الحضارات الأخرى ؟ كل من أراد أن يكتب عندنا قصة حرص على أن يكتب تحتها بخط واضح « قصة مصرية » وعنى بأن يجرى حوادثها فى الأحياء الوطنية ويصبغها صبغا عنيفا بالألوان المحلية ، كل ذلك ليقنع نفسه بأنه يصنع فنا قوميا ذا روح مصرية أصيلة ، كل هذا نوع من مركب النقص — وهذا الخوف لا مبرر له .. إن الروح المصرى الأصيل يستطيع أن يطبع أى موضوع يمسه ولو كان فى محيط أجنبى .. كما استطاع الروح الإسلامى أن يطبع بطابعه فن العمارة الذى استنبطه من الوثنيين والبيزنطيين .. وكما استطاع شكسبير أن يطبع بشخصيته الأساطير التى نقلها عن الإيطاليين والدانمركيين والشرقيين ..

أيها الشباب !.. لا تفكروا بعد اليوم بعقلية « محسن » .. تلك كانت عقلية شاب الثورة المصرية والبعث القومى .. نحن اليوم قد بعثنا .. انهضوا للعمل .. وواجهوا العالم بعقلية « إنسانية » لا تعوقها نعرة من النعرات .. وسعوا آفاقكم ولا تخشوا على روحكم !..

خطأ آخر من أخطائى .. وتبعة من تبعاتى .. نشرت منذ أعوام عديدة فى صحفة ١٠٥ من كتاب « تحت المصباح الأخضر » هذه السطور :

« ... إن سفور المرأة فى مصر قد سبق سفور الأديب ، من أجل هذا نرى جانبا كبيرا من أدبنا ما زال أدبًا « حبيسًا » تفوح منه رائحة الغرفة المغلقة .. أدب صناعة ، وأدب « علب محفوظة » من التعبيرات المستعارة والأساليب والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين .

أما أدب الهواء الطلق ، أدب التعبير عما فى أعماق النفس فى حرية وأمانة وإخلاص ، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية . هذا الأدب الخارج من القلب ليخاطب كل قلب على وجه البسيطة . هذا الأدب العالمى الذى يؤثر فى نفس كل أمة وكل جنس وكل آدمى ، لأنه نبع صافيا خالصا حارا من قلب آدمى . هذا الأدب حظنا منه قليل لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل ..، الخ ...» .

هذا كلام جرت به الأقلام اليوم كثيرا .. كما رددت الألسن عبارات « الفن والحياة » و « الفن والشعور » .. الخ وهو كلام فى جملته صحيح ، والخطأ فيه يسير .. على أن الواجب يحتم علىّ أن أخطئ نفسى فى بعض المواضع .. إن هذا الكلام على إطلاقه يحتاج إلى تصحيح ، وبعض الكلمات تحتاج إلى تجديد .. لقد أحيت وزارة المعارف ذكرى أبى العلاء المعرى ، وأرسلت إلىّ نسخة من كتاب « سَقط الزند » فعكفت على مطالعته وخرجت من ذلك أقول :

« فن هذا العبقرى « رهين المحبسين » .. أهو فن هواء طلق وقلب وشعور وحياة ؟! أم هو فن رجل ضرير حبيس حجرة مغلقة ، يمتعنا حقا .. ولكنه إمتاع لا يثير عواطفنا بقدر ما يثير تفكيرنا ، ولا يهز قلوبنا

بقدر ما يهز رءوسنا . ولا نجد فيه اللذة سهلة ميسرة ولكنا نبلغها بذهننا بعد كد وجد وغوص ؟! » .

إذن يجب أن أصحح للشباب كلامي المطلق الذى نشرته منذ أعوام .. وأن أقول لهم إن الشعور الحار وحده بما يثيره من انفعال ، ليس هو كل الفن ، ولا هو خير الفن فى بعض الأحيان .. لأن المتعة التى تأتى من غير غوص هى فى أكثر الأحوال رخيصة .. و« آلام فرتر » العاطفية أقل رتبة فى نظر جوته نفسه وتاريخ الأدب من « فاوست » الذهنية ..

خطأ قولى السابق أنى لم أحدد معنى « القلب » .. القلب فى الفن هو الصدق . لا الصدق بمعناه الضيق.. المقصور على الشعور العاطفى أو الوجدانى .. بل أيضا صدق الشعور بحقيقة فكرة من الأفكار .. على هذا النحو يجب كذلك تحديد معنى « الحياة » فى الفن.« ما من شك أن الفن هو تعبير عن الحياة .. وليس من السهل تصور فن منفصل عن الحياة إلا أن نتمثل فن الزخرفة الإسلامى ، الذى لا يصور زهورا ولا طيورا ولا حيوانا .. ويقوم على تخطيط هندسى .. فن عريق بديع لا شك فيه ، ولكن نسبته إلى الحياة التى نعرفها يحتاج إلى مشقة التخريج .. هذا التجريد الذهنى فى الزخرف الإسلامى يماثله التجريد الذهنى فى الفن المصرى القديم ، بخطوطه الرئيسية العارية من اللحم والدم . لقد كان همه أن يحيى الفكرة فى الحجر لا أن يقلب الحجر حياة كما فعل الإغريق .. مهما يكن من أمر تفضيلنا هذا النوع أو ذاك فإن اختلاف العقليات والاتجاهات والأنواع فى الأدب والفن ، يحملنا على أن نوسع معنى « الحياة » حتى

تشمل كل هذه الألوان من الآداب والفنون .. لابد أن تكون « الحياة » فى الفن ليس فقط كل ما يقع فى العالم الخارجى ، ويضطرب فيه الإنسان بحسه وقلبه ومشاعره بل أيضا كل ما يقع فى العالم الداخلى ويستخرجه الإنسان بفكره وذهنه وتأملاته .. إن « الحياة » تسكن فى كل جزء من أجزاء الإنسان الحى .. فى قلبه وفى غريزته وفى حسه وفى رأسه .. ولو جئت بإنسان ، شاعر أو مفكر وحبسته فى جب ، وأغلقت عليه بسبعة أختام ، وتركته الأعوام ، لأخرج بعد كل ذلك حياة ...

ذلك بعض من تلك الأخطاء التى تركناها تسعى فى جحور الكتب إلى وعى الشباب دون انتباه .. حبذا لو عدنا من حين إلى حين نراجع ما نشرنا ، ونسترجع ما أصدرنا .. كما تفعل المصارف المالية عندما تسترجع من أيدى الناس أوراق العملة الممزقة القديمة ، كلما مر عليها قدر من السنين !..

(أخبار اليوم ٢٨/٥/ ١٩٤٩)

الجاحظ ينظر إلينا

قلما يحتفظ الإنسان بشيء من آثار الصبا .. فإذا عثر على أثر من تلك الآثار ، وقد وخطه الشيب ، كان لذلك فى نفسه أجمل الوقع .. وإنى لكثرة التنقل فى الحياة ، وبعد الشقة فى الزمن ، قد فقدت كثيرًا من آثار صباى ..

ولكننى عجبت ذات يوم ، وقد وقع فى يدى كتاب لأبى عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ .. كتب على جلدته اسمى فوق عبارة : « سنة أولى فصل أول » بخطى الذى كان لى فى ذلك الوقت .. وما رأيت أنه تختلف كثيرًا عن خطى فى هذه الأيام .. لقد فرحت بذلك الأثر ورجعت بفكرى القهقرى ، وأنا أتساءل : أحقا كنا نقرأ الجاحظ فى مثل تلك السن ؟! أغلب الظن أن هذا الكتاب لم يكن من مقررات المدارس فى ذلك العهد .. إنما هو نوع من المطالعات الخاصة التى كنا نغرق فيها خارج الدرس .. ذلك أنى لم أنس صفحة من صفحات هذا الكتاب الذى كنت أقرؤه كثيرًا فى ذلك الحين معما كنت أقرأ من آثار الأدب القديم ، والحق أن الجاحظ وقد مضى على وفاته أكثر من ألف عام هو الأستاذ المباشر لأكثر زعماء القلم فى الأدب العربى المعاصر .. لأنه رفع علم التجديد وعلم الكتاب .

إن الأسلوب أداة للتعبير القويم عن النفس والفكر ، لا وشى من

اللغو ، ولا بضاعة من الزخرف يراد بها اللهو،وإنى لموقن أن الجاحظ لو استطاع أن ينظر إلينا من عالمه الآخر ، لما أنكر كثيرًا .. من الأساليب التى ينشئ بها كتاب اليوم أفكارهم .. بل إنه لفرط صدقه فى تصوير نفسه وعصره ، وصراحته فى التعبير عن المشاعر الإنسانية الثابتة فيه وفى الناس .. قد لا يرى إلا تغييرًا يسيرًا فى المحيط الأدبى ..

بل فى كل مكان وزمان ، يوجد به أدب وأدباء ، وكتب ومؤلفون .

ولنستمع إليه إذ يقول بلغته التى كان يكتب بها منذ عشرة قرون :

« ..إنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة .. وأنسبه إلى نفسى .. فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفا للملك ، معه المقدرة على التقديم والتأخير ، والحط والرفع والترهيب والترغيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة ، فإن أمكنتهم الحيلة من إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذى أُلف له ، فهو الذى قصدوه وأرادوه .. وإن كان السيد المؤلف له الكتاب نحريرا نقابا وحاذقا فطنا ، وأعجزتهم الحيلة .. سرقوا معانى ذلك الكتاب ، وألفوا من أعراضه وحواشيه كتابا ، أهدوه إلى ملك آخر . وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوبا إلىّ وموسوما بى .. وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى وأحيله على من تقدمنى عصره مثل ابن المقفع .. فيأتينى أولئك القوم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا

الكتاب ، لاستنساخه وقراءته عليّ ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إمامًا يقتدون به .. ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم .. لأنه لم يترجم باسمى ، ولم ينسب إلى تأليفى .. » الخ .

ما الذى تغير اليوم من هذه الصورة وما الذى بقى ؟ ما من ريب فى أن الغرائز البشرية التى وصفها « الجاحظ » لا سبيل إلى زوالها .. أما ذلك السيد أو العظيم الذى كان يحث الأدباء على التأليف ، ويرغبهم فيه بالمكافأة والرفع والتقديم ، فقد اختفى ظله .. وحل محله سادة وعظماء لا يقرأون ولا يكافئون .. ولكنهم ينفقون المال على جياد السباق ،ويحيون الليل على موائد القمار ، ويهدون الحلى والجواهر إلى راقصات الملاهى ومطربات الخدور .. كان العلم فيما مضى زينة للسيد ، ولؤلؤة فى رأسه ، ومزية يسمو بها على تابعه .. فإذا الجهل اليوم غمرة تطوى السيد مع تابعه ، وسلسلة تربط الرؤوس بالأقدام . وإذا الجميع كتلة حالكة فى درك واحد من الادراك .

لقد استولت على النفوس جميعا روح الاستهانة بالمثل العليا.. وتملك القلوب والأجسام شيطان المتعة اليسيرة العاجلة .. ما من أحد يريد أن ينقطع إلى علم أو يتوفر على فن .. إنما الكل يتطلع إلى الثمرة قبل الشجرة ! ودب هذا الروح فى شباب اليوم .. فلم يعد لهم جلد على درس ، أو صبر على كدح .. لا ينظرون إلى الجهد الذى يجب أن يبذل ، ولكنهم يبصرون المراتب التى يجب أن يرقوا إليها . لا يريدون أن يضيعوا وقتا فى الغرس البطىء ، والإعداد الطويل .. ولكنهم يريدون ثمرة غرس الآخرين ،

عجلين متلهفين ! لذلك قل الاطلاع العميق وندرت القراءة المجدية ، وكسدت الكتب القيمة فاختلت الموازين وفسدت القيم !...

ذلك هو عصر « الجهل الشامل » الذى نعيش فيه .. وما أرى الجاحظ إلا راضيًا عن نفسه قانعًا بمصيره ، لو اتيح له أن ينظر إلينا اليوم من غابر زمانه ...

(أخبار اليوم ٢١/ ٢/ ١٩٤٨)

كومبارس مسرحيتى من الرهبان

مرة أخرى يتاح لى أن أشاهد إحدى مسرحياتى تمثل خارج مصر فى لغة أجنبية ، والمسرحية هذه المرة هى « أهل الكهف » واللغة هى الإيطالية ، والمدينة هى « بالرمو » ، والجمهور هذه المرة أيضًا كان جمهورًا دوليا ، ضم الإيطالى والفرنسى والأسبانى واليونانى والعربى وغيرهم من أبناء الدول المشتركة فى المؤتمر الذى عقد هذا الأسبوع فى هذه المدينة لدراسة شئون البحر الأبيض المتوسط ، كما ضم الوافدين من كل جهة لحضور المعرض الصناعى الفنى القائم فى تلك الفترة .

وكان الجو لطيفًا فى هذه المدينة التى تحيط بها الجبال المكسوة بالخضرة ، وكان الفندق الذى نزلت فيه — ضيفًا على الحكومة الإيطالية — قصرًا منيفًا من القصور القديمة يشرف على البحر .

ما كدت أفتح نافذتى فى المساء عند الغروب على حديقته ، حتى أخذتنى الروعة بل وبعض الروع ، فقد رأيت الماء الأزرق يكاد يعبث بأقدام النخيل الممشوقة كالرماح العربية ، وإلى جانبها أشجار الصنوبر البحرية ، داكنة كرؤوس الحبشان ، وحولها الأزهار البرية تنشر أريجها ممزوجا بعطر الليمون المزهر فوق شجره المثمر فى حجم البيض ولون الكهرمان . منظر لا يوصف بالنثر ، لأنه هو الشعر والسحر بغير كلام

ولا شعوذة ، ثم أخذتنى هزة خوف ، فقد لمحت فجأة بين الأشجار أجسامًا تتحرك على غلائل رقاق ، ليست قطعًا أجسامَ بشر ، لأنها تطير فى الهواء . فقلت فى نفسى : هذا قصر قديم ، والمكان ساحر أو ربما مسحور ، أو قدر لى هكذا أن أرى الأرواح رؤية العين تهيم فى الحديقة قبل أن يدخل الليل ؟! وكيف أستطيع بعد ذلك المبيت وحدى فى حجرتى طول ليلتى ؟

ولكن الله لطف بى وبغرفتى ، فقد تبين لى بعد قليل أن الغلائل الرقاق المتحركة كالأجسام فى الظلام ليست سوى دخان سيجارة أحد النزلاء فى الحديقة ، هذا الدخان العادى كان يتماوج بين الأشجار الداكنة متخذًا من الأشكال ما يشبه أرواح الأساطير أو عرائس المروج .. هكذا يلعب الخيال أحيانًا برؤوس الناس فى بعض الأمكنة وبعض الظروف .

ولكن السحر الأعظم هو المكان الذى مثلت فيه المسرحية ... لم تكن المسارح المغلقة — على كثرتها وفخامتها فى المدينة — صالحة فى حر الصيف فكان من الأنسب التمثيل فى الهواء الطلق ، وليس هذا بالغريب ، فمسرحية (فوست) لشاعر ألمانيا (جوته) تعرض كل صيف فى الهواء الطلق ، ولكن الطريف حقًا هو اختيار الموقع ، لقد اختاروا لأهل الكهف موقعًا من أهم المواقع الأثرية فى تلك البلاد ، هو دير « مونريالى » ... ذلك الدير المشيد على الطراز البيزنطى العربى النورماندى . فالعرب فى مجدهم قد جاءوا إلى تلك البقعة من الأرض وأثروا فيها وتأثروا ، وأهل الكهف — كما هو معلوم — ورد ذكرهم فى

القرآن الكريم ، فقد هربوا بدينهم المسيحى من ذلك الوثنى الآمر بالجزرة ، واعتصموا بكهف ناموا فيه إلى أن استيقظوا بعد ثلاثة قرون فى عهد ملك مؤمن بدين المسيح ، فعرض هذه القصة فى دير فكرة تدل على فهم وذوق ، لا لأن التمثيل فى الدير أمر غريب فى أوربا ، على العكس ، إن خير التمثيل ما نشأ فى رحبات المعابد ، وإلى يومنا هذا تعرض مسرحية (يدرمان) لشاعر النمسا (هوفمانستال) كل صيف بسالزبورج أمام كاتدرائية سان بيتر . بل إن مسرحية شاعر فرنسا (بول كلوديل) عن (مريم) تمثل هذا الأسبوع بالذات فى دير (سان سيفيران) ، ولكن الغريب فى أمر « أهل الكهف » هو اختيار الدير ذى الطابع العربى المسيحى .. ما من إطار يصلح حقًا لروح هذه القصة مثل هذا الإطار الفريد ، ولقد بذل فى إخراجها من العناية ما أثر فى نفسى ، فقد قيل لى إن إعدادها تم تحت الإشراف المباشر للسنيور « بيترو كاستليا » القائم هناك بأعمال وزير المعارف ، والواقع أن أبرز مظهرين للفن فى بالرمو إبان المعرض والمؤتمر هناك هما : وجود الموسيقى المشهور « بيير مونتيه » آتيا من أمريكا ليعرض مع فرقته بعض آثار بتهوفن وفردى ، ثم عرض مسرحية « أهل الكهف » . غير إنى شعرت أن الاهتمام العام بالمسرحية من الجمهور والسلطات كان فى المحل الأول .

وجاءت ساعة التمثيل ، وامتلأت رحبة الدير بالمشاهدين .. تلك الرحبة المفروشة بالعشب والزهر ، تحيط بها الأروقة ذوات الأعمدة العربية النورماندية .

وسلطت الأنوار الكشافة على منظر كهف ، هيئ فى فجوة بين عمودين ، وظهر أهل الكهف الثلاثة نائمين .. ثم .. ثم بدأت مفاجأة لم أتوقعها : جوقة من راقصات الباليه يتحركن حركات توقيعية على أنغام موسيقى خفية ، وكأنهن يمثلن الأحلام التى عمرت رءوس النائمين طيلة المئات من الأعوام . ثم اختفت هذه الأحلام باستيقاظ النائمين الثلاثة ، وبدأ الكلام بينهن بالإيطالية التى لا أفهم منها حرفًا ، وحدث لى هنا ما حدث لى فى سالزبورج يوم مثلت « بجماليون » بالألمانية . اكتفيت من المشاهدة بقراءة ما يبدو على وجوه الحاضرين الفاهمين من أثر ، وإنها لتجربة ممتعة حقا ، تستحق ما بذلت من متاعب السفر ، أن أعرف روايتى ، لا من سطور كتاب ، بل من المسطور فى وجوه الناس ، من مختلف الأجناس !.

وجاء الفصل الثانى ، ثم الثالث ، وحوادثهما تدور فى بهو القصر ذى الأعمدة ، ولم يكن هنا من حاجة إلى « ديكور » مسرحي فأعمدة الدير الحقيقية كانت أفخم من كل تزييف وتزويق ، وظهرت بطلة القصة « بريسكا » تقوم بتمثيلها ممثلة السينما والمسرح الإيطالية « نيدا نالدى » ففهمت لأول مرة من هى « بريسكا » وما كنه الحب الذى ماتت به ، وعندما قامت صائحة على جثة حبيبها الذى لفظ أنفاسه حينما واتته السعادة ، خيل إلىّ أنى أمام مشهد « موت إيزوليت » فى أوبرا « فاجنر » المشهورة .. كانت « نيدا نالدى » تتكلم على أنغام موسيقى غير منظورة كلامًا خلته غناء ، وكان إلى جانبى أحد رجال الدولة الإيطاليين، فهمس

فى أذنى : « ما أصلح هذه المسرحية أن يصنع منها أوبرا .! »

يا للعجب ..! نفس هذه العبارة سمعتها فى سالزبورج من الموسيقى النمسوى « بومجارتنر » وهو يشاهد « بجماليون » !

ما علاقة مسرحياتى بالموسيقى ؟ لست أدرى ..

ولكن أعجب ما حدث فى تمثيل « أهل الكهف » .. بل أعجب ما حدث فى تمثيل مسرحية على الإطلاق إلى يومنا هذا هو أن أجراس الدير دقت للصلاة فى اللحظة التى دار فيها الحديث بين أهل الكهف عن الإيمان والدين ومجد المسيح ..

وسمع الجمهور من بعيد تراتيل الرهبان آتية من داخل الدير كما لو كانوا « كومبارس » فى أوبرا أو مسرحية .

وما من شك أن هذا لم يكن مقصودا . فمهما يكن من أمر الاهتمام بالرواية ، فليس من المعقول أن يسمح دير عظيم كدير « موتريالى » باستخدام رهبانه على هيئة « كومبارس » فى رواية من الروايات !

ولكن الرهبان كانوا فى أعماق ديرهم ، لا يشعرون فيما أظن بما يجرى خارجه من تمثيل .. وكانوا يرتلون صلاتهم حقا ، ويدقون أجراسهم حقا ، وهم لا يعلمون أنهم يساهمون بذلك فى الإخراج ويشاركون فى التمثيل ، مساهمة فعالة ومشاركة رائعة !

لقد كانت أصوات ترتيلهم تصل إلى آذننا خافتة هامسة عميقة جليلة ، لا تطغى على حوار الممثلين ، ولا تصرف الأذهان عن مجرى القصة .. كانت عنصرا مصاحبًا يساير المسرحية بمقدار ويماشيها

باتساق ، كأن مخرجا بارعا أنفق الجهد وفتق الحيلة لينظمها هذا التنظيم !

ولكن الحقيقة امتزجت بالخيال ، والواقع اختلط بالفن ، فى لحظة نادرة من لحظات المصادفات العجيبة . فكان التأثير بالغًا ...

ونجحت الرواية ..

وجاء من يقول إن النية متجهة إلى إعادة إخراجها على أحد مسارح روما فى الشتاء القادم .. فصحت من فورى :

— والكومبارس ؟!

حقًا .. هذا الكومبارس .. أين نجد مثله فى روما أو فى أى مسرح على وجه البسيطة ! هذا الكومبارس المستتر الأمين الذى حسب أنه يعمل مخلصا لوجه الله .. فإذا هو يعمل أيضا ببراعة فائقة — من حيث لا يدري — لوجه الفن .. ولوجه : بالرمو (إيطاليا) .

(آخر ساعة ١٦ يونية ١٩٥٤)

ألف ليلة وليلتان

شهرزاد : لقد فرغت من قصصى يا شهريار ... ونحن الآن فى الليلة الثانية بعد الألف ! فإذا أردت أن تقتلنى ، كما فعلت بنسائك الأخريات ، فافعل ...

شهريار : أقتلك أنت ؟.. إنما أود الآن لو أقتل أشخاصا آخرين !

شهرزاد : من هم ؟

شهريار : وزرائى :أولئك المراؤون المنافقون ، الذين ما عنوا قط أن يطلعونى على ما أطلعتنى أنت عليه .. لشد ما كنت أجهل الناس ، بل شد ما كنت أجهل نفسى .. لطالما حسبت الدنيا طعاما وشرابا ونساء ! ولكنك أبرزت لى فى أحاديثك عالما زاخرًا بشتى المعانى والألوان وأظهرت لى الناس فى مختلف أحوالهم وطبقاتهم . لقد رأيت الفقر والجوع والعرى والبؤس والظلم واللؤم إلى جانب الغنى والترف والرفاهة والنعيم ! لقد كشفت لى عن الجانب المستور فى سواد شعبى ، فعلمت إلى أى مصير يسير .. قصصك يا شهرزاد إن هى إلا تقرير خطير ، عرفت كيف تقدمينه

إلىّ لأتدارك الأمور ، قبل فوات الأوان !

شهرزاد : إنى ما قصدت يا مولاى إلا تسليتك ، وإيناس وحشتك فى تلك الليالى الطوال !..

شهريار : أحمد لك هذا التواضع .. إنك بارعة فى مخاطبة الملوك .. اطمئنى ! لن أمعن فى هذا البحث عن مقصدك .. يكفينى أنى عرفت وفهمت .. لقد كنت لى مرآة صادقة يا شهرزاد ! رأيت فيها حقيقتى .. وحقيقة شعبى ! وتلك أنفس مرآة يستطيع أن يعثر عليها ملك !

شهرزاد : هذا إطراء يسرنى ويخيفنى ..

شهريار : ولماذا يخيفك ؟

شهرزاد : ليس أقصر من عمر مرآة فى يد ملك ! إنه قد يحطمها إذا ضاق ذرعا بما تعكس من حقيقة !

شهريار : لست أنا الذى يفعل ذلك يا شهرزاد .. ربما كنت كذلك فيما مضى .. أما اليوم فأنا رجل آخر ! ألا تبصرين فى وجهى تغييرا ؟ ألا تلمحين فى عينى بريقًا ؟ ألا ترين أنى مقدم على أمر جلل ؟!

شهرزاد : أرى حقا أنك يا مولاى ...!

شهريار : نعم أصبحت رجلا أعرف واجبى وأدرك مهمتى .. وأعلم ما يجرى حولى .. لم أعد ملكا يدفن رأسه فى وسائد

النساء، لقد رفعت بيدك يا شهرزاد رأسي برفق كي أبصر... وجذبتني بلطف عن جو العطور والبخور، وجعلتني أفتح نافذتي المسدلة الأستار، لأستنشق رائحة الخطر المقبل عليّ...

شهرزاد : أي خطر يا مولاى !

شهريار : أخبريني بالصدق يا شهرزاد .. ماذا يقول الناس عنى ؟.. تكلمي .. ما بالك تصمتين ؟ وما بال الحيرة تعلو وجهك ، والحرج يعقد لسانك ؟ إذن فاسمعي .. ليس من العسير عليّ الآن أن أستشف رأى الناس فيّ ، إنهم ولا ريب يقولون فى كل مكان : « ماذا صنع لنا ملكنا شهريار غير أن أخذ من بيننا العذارى ، يستمتع بأجسادهن فى كل ليلة ، ويسلمهن للجلاد كل صباح .. أما نحن الشعب فما فكر فينا وفى بؤسنا وشقائنا بمثل ما فكر فى متعته ولذته ... »(*)

شهرزاد : ؟!.

شهريار : أتمزحين يا شهرزاد ؟ لو كان وزرائي مسئولين حقا معى

(*) اتصل بى النائب العام وهو زميل سابق فى القضاء ليقول لى إن الناس فهمت أنك تقصد جلالة الملك فاروق فى صورة شهريار وما يجب أن يفعل فى الظروف الحاضرة ، فما قولك ؟ فقلت له : إن الكاتب يكتب ما يكتب والقارئ يفهم ما يفهم

لأخبرونى بما يقال.. كلهم ولا ريب قد سمعوا مثلك ما يقوله الناس .. ولكنهم يحجمون عن إخبارى .. لأنهم يعلمون أنه لن يقع عليهم وزر ولا ضرر .. فإن الرياح لا تصيب إلا تيجان النخيل .. أما هم ففى الظل آمنون يتلقون التمر ، فى رأسى فكرة يا شهرزاد ... أنت أول من أطلعه عليها : سأقتل هؤلاء الوزراء ...

شهرزاد : تقتلهم ؟

شهريار : لا تفزعى .. ليس بالسيف أقتلهم .. ولكن بشىء آخر .

شهرزاد : بماذا ؟

شهريار : بالمسئولية .. بالتبعة .. سأضعهم هم فى مهب الريح.سأقول لشعبى : اختر لنفسك وزراءك .. واشترط عليهم شروطك .. وألزمهم بحاجاتك ، واجعلهم منوطين بمطالبك ، مسئولين عن هنائك .. فإذا قصروا وتهاونوا فاعزلهم واختر غيرهم . وأنا مقرك على كل تصرفاتك لأن كل غايتى مصلحتك أنت وحدك يا شعبى ، وكل أملى هو فى سعادتك ورفاهتك (*) .

(*) فهم الناس من ذلك أنى أدعو إلى الانتخابات الحرة التى كان القصر الملكى يعارضها ...

شهرزاد : أوَ تفعل ذلك حقا ؟

شهريار : وما الذى يمنعنى من فعله يا شهرزاد ؟ أليس من واجبى أن أفتح للشعب طريق هنائه ليبحث عنه بنفسه ؟ لا أريد أن يقال بعد اليوم أن مفتاح هذا الطريق تحت وسائدى الموشاة .. سألقى به إليهم من هذه النافذة !

شهرزاد : وماذا تصنع بعد ذلك يا مولاى ؟

شهريار : أشرف عليهم ، أراقبهم من عل وأرسل إليهم مع النسيم أحر قبلاتى وأعز تمنياتى !

شهرزاد : أهى قصصى التى أوحت إليك بمثل هذا الشعور النبيل ؟ إنى إذن لامرأة عظيمة ! أعترف لك أنى ما كنت أتوقع أن يحدث هذا كله ، يوم جئتك فى الليلة الأولى .

شهريار : وأنا ما كنت أتوقع إلا أن أرى دمك يسفك فى اليوم التالى ..

شهرزاد : ها قد مضت ألف ليلة ثم ليلتان ولم تسفك دمى ولم تقبلنى !

شهريار : حقا يا شهرزاد ! لقد شغلنى ذهنك عن دمك وعن فمك !..

(آخر ساعة ١٨ فبراير ١٩٤٨)

فن ... « الزحلقـة »

وليس المقصود هنا فن « الزحلقة » فوق الجليد فى المشاقى الجبلية ، بل فن « زحلقة » المسئولية والاختصاص فى أداتنا الحكومية . وهو فى الحق فن قد اكتسبناه بكثرة الممارسة ، وحذقناه بطول المران .. ولعل من سبق له اشتغال بالقضاء ، خصوصا فى الأرياف قد مرت به ، على الأقل مرة ، حادثة « الجثة » التائهة .. جثة القتيل الملقاة فى النهر ، تستكشف عند المركز ، فيتبرم رجال الحفظ بها وبعواقب انتشالها وما يؤدى إليه أمرها من تحقيق وتفتيش وتشريح ، وكد وتعب وجرى وراء الفاعل وتحمل النتائج وتعرض لتبعات . فما لهم ووجع الدماغ .. وفى الإمكان التعامى عن الجثة بلباقة ، أو تخليصها من أعشاب الشاطىء برشاقة ، ودفعها إلى التيار ، هدية كريمة إلى مركز آخر .. ويحملها التيار إلى المركز الآخر ، فيصنع بها ما صنع الأول متحاشيا لمسها ، متهربًا من استقبالها ، متبرعا بها للمركز التالى .. وتسبح على متن التيار إلى المركز التالى ، فيتنكر لها هو أيضًا ويتأفف ويتضجر ولا يقر له حال ولا يهدأ له بال حتى « يزحلقها » إلى من بعده . وهكذا دواليك ... إلى أن يشاء الله ، ويرسى هذه الجثة على بر السلامة . وبر السلامة هنا هو الجهة التى لا تستطيع لهذه الجثة « زحلقة » ولا منها هروبا ولا فكاكا ولا خلاصا ولا فرارا . يلبسها

« الاختصاص » كأنه « خازوق » تقبله مرغمة مذعنة وأمرها إلى الله !..

أما الوقت الذى ذهب هباء فى هذه التصرفات ، وأثر الجريمة الذى ضاع ، والمصلحة العامة التى فاتت بسبب هذه الإجراءات .. فمن يدفع ثمنها ، وعلى من يقع وزرها وقد طمست معالم المسئولية بين هذه المراكز المختلفة ؟!

هنا براعة فن « الزحلقة » !..

وليس هذا الفن مقصورا على الريف دون المدن ، ولا على زمن دون زمن ، ولا على مصلحة دون مصلحة ، فالتفوق فيه بحمد الله مشاع بين الجميع .. وها هى ذى رسالة حديثة من قارئ فيها بعض الدلالة :

« بعد التحية .. أتشرف بالإحاطة بأنى مرضت فاضطررت إلى شراء قطن من صيدلية مشهورة بالقاهرة .. ولما قدم إلىّ الصيدلى القطن المطلوب لاحظت أنه غير مصرى الصناعة ، بل فلسطينى صهيونى متجنلز . فرددت إليه لفة القطن راغبا إليه استبدالها بقطن شركة مصر للغزل ، لأنه النوع المصرى الوحيد ، ويجب أن نفضله ، ولكن الصيدلى اعتذر بعدم وجود الصنف المصرى . ولما كان الوقت ليلا والضرورة ملحة ، أخذت ذلك النوع وانصرفت به ... على أنى ما كدت أفتح اللفة حتى لاحظت بها قطعة كبيرة من القطن محتوية على مواد غريبة ، فأخذتنى العزة القومية والرغبة فى المحافظة على سلامة المجتمع ووقايته ، فبادرت إلى إرسال تلك القطعة ذات المواد الغريبة إلى معامل الصحة ...

فجاءنى الرد الآتى نصه :

حضرة المحترم منصور أفندى على حسن .

نعيد لحضرتكم رفق هذا القطن الطبى الذى تلقته المعامل طرد بريد رقم ١٢٢ فى ١/١١/ ١٩٤٦ والمطلوب فحصه للمواد الغريبة ، وذلك لعدم اختصاص معامل الوزارة للفحص المطلوب .

واقبلوا تحياتنا ..

٢٠/١١/ ١٩٤٦

مدير عام مصلحة المعامل

(توقيع باللغة الإنجليزية)

ولم أستسغ خطاب المعامل فأرسلت خطابا شخصيا إلى معالى وزير الصحة السابق .. فأجاب سعادة وكيل الوزارة بالآتى نصه :

حضرة المحترم منصور أفندى على حسن .

بالإحالة إلى كتاب حضرتكم المؤرخ ٣٠/١١/ ١٩٤٦ الخاص بطلب فحص عينة قطن للمواد الغريبة بمعامل الوزارة نحيط علم حضرتكم بأن هذا الفحص لا يقع فى دائرة اختصاص المعامل المذكورة ، ولهذه المناسبة نشير على حضرتكم بإرسال هذه العينة إلى مجلس مباحث القطن بالأورمان — جيزة .

واقبلو تحياتنا .

١٥/١٢/ ١٩٤٦

وكيل الوزارة للشئون الطبية

(إمضاء)

ونفذت إشارة سعادة وكيل وزارة الصحة ، وأرسلت قطعة القطن الطبى إلى مجلس مباحث القطن بالأورمان — جيزة ، وهو تابع لوزارة الزراعة ، فجاءنى الرد الآتى نصه :

حضرة المحترم منصور أفندى على حسن .

ردا على خطاب حضرتكم المؤرخ ٢٢/ ١٢ /١٩٤٦ الخاص بطلب فحص عينة القطن الطبى المرسلة نفيدكم أن المختص بهذا الفحص مصلحة الكيمياء التابعة لوزارة التجارة والصناعة .

وتفضلوا ...

٢٥/ ١٢/ ١٩٤٦

مدير قسم النباتات

(إمضاء)

وهنا وقف بالطبع ذلك المتحمس « للعزة القومية » عن المضى فى طلبه ، وفترت فيه « الرغبة فى المحافظة على سلامة المجتمع ووقايته » فقد أيقن أنه سيقذف به مع لفة قطنه من وزارة إلى وزارة ، إلى أن يبلى القطن أو يذهب أثر المواد الغريبة ، أو ينفد صبره أو يضيق صدره أو تطير بقايا المشاعر الطيبة التى دفعته إلى الاهتمام بأمر ، يكلفه الوقت والمال وشغل البال ، بإرسال طرود البريد وتحرير الخطابات ، والأخذ والرد فى سبيل غرض لا هم له فيه إلا الصالح العام !..

والفضل فى ذلك كله لفن « الزحلقة » .

(أخبار اليوم ١١/ ١/ ١٩٤٧)

(يقظة الفكر)

أشخاص رواياتي يطالبونني بإطعامهم

﴿ ... ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون ﴾ .

* * *

صورة عجيبة من صور القرآن الكريم ، كلما تأملتها أخذنى العجب . هذه الأعضاء التى نحسبها قطعًا منا ، خاضعة لنا يمكن أن تنقلب يومًا بأمر الله أشخاصًا منفصلة عنا ، تحاسبنا وتشهد علينا !.. من هذا القبيل أيضًا مخلوقات الكاتب التى تخرج من رأسه .. ماذا يكون الحال لو أن الله أمرها أن تنقلب أشخاصًا حية ، تسعى إلى صاحبها وتحاسبه وتطالبه ؟!

تخيلت هذه الفكرة .. وتصورت الله تعالى يريد أن ينزل نقمته بمؤلف ، يفاخر بأشخاصه الأحياء فى الكتب كما يزعم ، فينفخ فيهم الروح وينهضهم أحياء على الأرض حقيقة ، ويدفعهم إلى مؤلفهم يسألونه أن يرزقهم !..

تمثلت نفسى عندئذ فى موقف ذلك المسكين .. وطفقت أحصى عدد أشخاص قصصى . أحصيتهم لأول مرة فإذا هم يبلغون الثلثمائة

عددا .. فيهم الملوك والوزراء والأطباء والمحامون والمهندسون واللصوص والشحاذون والخدم والمتسولون .. إلخ .

لو أنى تعرضت لغضب الله فأحيا هؤلاء فما أشعر ذات يوم إلا وثلثمائة شخص ، يبحثون عنّى ، ويطرقون بابى ، ويطلبون مقابلتى .. ماذا يكون موقفى ؟..

سأذعر من غير شك .. ولكن المسألة ستزداد حرجا عندما يقولون لى :

— رتب لنا أمور معاشنا !

— أنا أرتب لكم معاشكم ؟!

— ومن غيرك يصنع لنا ذلك ؟ ألسنا مخلوقاتك ؟!

— مخلوقاتى ؟ هذا صحيح .. ولكن ..

— نحن جائعون .. نريد أن نأكل .. أليس عندك طعام ؟

— طعام ؟ لثلثمائة شخص ؟! من ذا يستطيع أن يملأ بطونكم هكذا دفعة واحدة ؟! ولا مطاعم الشعب !

— وما العمل ؟ نحن الآن جائعون !

— وما دخلى أنا ؟

— أنت الذى أوجدتنا !

— يا للمصيبة !

— أعطنا نقودًا .. وكل منا يشترى الطعام الذى يحلو له .. أليس معك نقود .. ذهب .. فضة ؟!

— ذهب فضة ..؟! أنا أوزع عليكم ذلك .. وأنتم جيش جرار ؟ أتظنون أنى جالس على خزائن الدولة !

— ابحث لنا إذن عن أعمال ! ضعنا فى أعمالنا ووظائفنا ونحن ندبر أمورنا !

— وظائفكم وأعمالكم ؟ ماذا تقصدون ؟

— الملوك منا ضعهم على عروشهم ، والوزراء فى مناصبهم .. والأطباء والمهندسون والمدرسون ... كل فى عمله ..

— ما شاء الله ! أين هى العروش والمناصب التى أستطيع أنا أن أضع فيها حضراتكم !

— وما الذى تراه لنا الآن ؟

— لا شيء .. أن تتركونى وشأنى .. وأن تعودوا من حيث جئتم ..

— هذا مستحيل .. نحن الآن أشخاص أحياء .. ولا نعرف فى هذه الدنيا أحدًا غيرك .. أنت المسئول عن رزقنا ..

— ما هذه الكارثة يا ربى !.. لو كنتم واحدًا أو اثنين أو ثلاثة لتحملتكم وأمرى إلى الله .. ولكنكم جيش .. جيش .. آه ... ما أسعدك يا من لم تؤلف غير كتاب واحد !..

— أسرع ودبر لنا الرزق . نحن جائعون !

— لا شك أن هذا نوع من الجحيم للمؤلفين .. كما أن شهادة السمع والبصر والجلد نوع من العقاب للكافرين ..

— نحن جائعون .. نحن جائعون !

— صه ! أتريدون أن تأكلوا ؟

— نعم .. نعم .. نعم .

— لا توجد غير طريقة واحدة : الأطباء منكم والمحامون والمهندسون والمدرسون .. ربما وجدت لهم أعمالا .. أما الملوك والوزراء والعظماء والمتشردون والمتسولون ، فلا أمل فى إطعامهم إلا من إتاوة يدفعها من وجد عملا .. رضيتم بهذا الحل ؟

— رضينا ..

— بقى شرط .. ما مصلحتى أنا .. فى أن أتجشم المتاعب فى سبيل رزقكم ! ماذا تصنعون لى فى مقابل تدبيرى لأموركم !

— نسبح بحمدك !

— كلا يا حضرات الأفاضل : أنا لا أطمع فى الحمد والثناء .. ولكنى أطمع فى أن تساوونى بالمتشردين والمتسولين والعظماء والوزراء أى تدفعوا لى إتاوة عن كل رأس يعمل !

— لك ذلك .. نحن مخلوقاتك . شغلنا وخذ ما شئت من أجرنا !

— افرضوا أنى لم أجد لكم اليوم فى زحمة الحياة الحديثة ، أعمالا محترمة .. ما المانع فى أن أنتفع بعددكم الكبير وأؤجركم جملة .

— تؤجرنا ؟

— أنفارًا فى ترحيلة جمع الدودة أو جنى القطن ، أو نقاوة الأرز أو حصد القمح !

— نحن أصحاب المناصب العظيمة والمؤهلات الباهرة . والمواقف

البارعة ..

— هذا كلام أنا الذى قلته : فى ساعة طيش ولحظة خيال . ولكنكم الآن أجسام حية تريد أن تأكل .. أتريدون أن تأكلوا أو لا تريدون ؟

— نريد أن نأكل ..

— إذن انسّوا الماضى .. ودعونى أشغلكم فى أى عمل .. وأؤجركم بأى أجر !

— أجرنا !

— ولى الإتاوة ؟

— ولك الإتاوة !

— اتفقنا .. هذا عمل لا بأس به .. لو عرفتم مشقة التأليف وقلة انتشار الفكر لأيقنتم أن تأجيركم أنفارًا فى الحقل ، قد يربح أكثر من بيعكم كتبًا !

* * *

إذا وقع الأمر حقا على هذا النحو الذى هيأه لى خيالى ، لما كان فى الأمر ضرر .. إنى مستعد أن أرزق وأرتزق من هذه المخلوقات ! ولكن من يضمن لى المسألة بهذه السهولة، وأنهم سيطيعون ويدفعون إلى النهاية.. خير لى أن أسأل الله أن يكفينى شرهم ، وأن يقصيهم عنى ، ولا يعرفهم عنوانى !

(أخبار اليوم ٦ أغسطس ١٩٤٩)

جنون وجنون

هنالك نوعان من الجنون فى الإسراف والإنفاق يلحقان الإنسان.النوع الأول يراه الناس ممثلا فى شخص.ذلك الذى يبذل الأموال الطائلة عن طيب خاطر من أجل اقتناء مجموعة نادرة من طوابع البريد أو السجاجيد أو اللوحات الفنية أو التحف الأثرية .. إن الناس ولا سيما الورثة منهم ينظرون إلى ألوف الجنيهات تذهب فى هذه الأشياء التى لا نفع فيها ولا فائدة منها . فيهزون الرؤوس أسفًا ويتهامسون !

ـــ جنون ! سفه ! ألا يستحق هذا المبذر أن يحجر عليه ؟

أما النوع الآخر من الجنون فيتمثل فى شخص ذلك المقامر ، الذى يلقى بأكوام الذهب على المائدة الخضراء ، فتبتلعها فى طرفة عين .. مائدة بريئة المظهر ، ولكن لها فما مثل فم البحر الأبيض والبحر الأحمر .. تغيب فيه الألوف والملايين فى سرعة البرق .. دون أن يظهر على وجهها الأخضر موج ولا زبد .

هذا المقامر أيضا مجنون .. ولكن العجيب فى أمر الناس أنهم لا يقسون عليه فى النقد ، كما يقسون على الأول .. لعل السبب هو أنهم يأملون معه أن يربح يوما فيعوض ما خسر .

ولكن الذى يحدث فى النهاية يدعو حقا إلى العجب ! يموت المبذر

الهاوى ، تاركا مجموعاته وتحفه التى زعم الناس ألا نفع فيها .. فيأتى الخبراء والمثمنون والمشترون فيعرضون على الورثة فيها من الأثمان أكثر مما تستطيع أن تذهب الظنون .. وإذا الورثة يجدون أنفسهم فجأة أمام كنز عميق براق قد فتح .. ثم يموت المقامر المغامر .. وتجرد تركته فإذا المائدة الخضراء قد ابتلعت فى جوفها آخر مليم فى خزانته .. ما ربحه منها وما ادخر .. لأنها لا تعطيك اليوم إلا لتأخذ منك غدًا .. ومنذ جلست إلى صدرها وهى تعدّك عبدها ، وتربطك بحبالها وتكتبك عندها — رابحا أو خاسرا — فى الغارقين ..

هذان النوعان من الجنون فى الإسراف والإنفاق عند الأفراد لهما مثيل عند الدول ..

النوع الأول يتمثل فى شخص تلك الدولة التى أولع حكامها بالتحف الثمينة والفنون الرائعة والقصور الفخمة والهياكل الضخمة .. لقد بنى « خوفو » الهرم الأكبر ، وأنفق فى بنائه عشرين عامًا ، وحشد له عشرات الألوف من الصناع والعمال والمهندسين والفنانين .. فقال الحمقى من المؤرخين :

— انظروا إلى هذا المجنون المبذر المستبد ، الذى أضاع مال الشعب وجهد الشعب ووقت الشعب فى شيء لا نفع فيه لهم ولا ربح لهم منه !

ومات « خوفو » ولكن التحفة الثمينة بقيت .. لا أقول ولا أردد فقط ما قالت الأجيال ورددت من أنها بقيت دليلا على مجد مصر وفنها وعلمها .. بل أقول أكثر من ذلك إن هذه التحفة التى يسمونها

« الهرم » قد بقيت للورثة كنزا ماديًا نقديًا يدر عليها فى كل عام منذ عشرات الأعوام مالا وفيرا يأتى به السائحون من أركان الدنيا الأربعة ! ما أنفقه « خوفو » من مال .. جناه الورثة أضعافا مضاعفة على مر الأجيال .. ولن نفرغ بعد من تحصيل الأرباح .. بل لعلنا فى مستقبل أيامنا يوم نعرف كيف نعرض كنوزنا ونجتذب السياح ونكثر لهم من الطرق والفنادق والملاهى ووسائل الراحة ، تتفتح لنا من الموارد ما لم يخطر على بال أجدادانا من خوفو إلى ابن طولون !

رأيت بذخ ملوك فرنسا فى « فرساى » منذ أسبوع : أى فن فى التصوير والنحت والنقش على الحائط والسقف والحجر والبرونز والقماش والسجاد ، ذلك البذخ الذى أدى إلى الثورة الفرنسية لأن الشعب لم يكن يدرك وقتئذ أن هذه الكنوز هى له دائما فى آخر الأمر . إن الورثة دائما متعجلون .. ولكن هذا الشعب اليوم يدرك ويحمد ويشكر .. وها هى ذى مقالة للمؤرخ الفرنسى المعاصر « بيير جاكسوت » نشرها منذ أيام يقول فيها : « شكرًا أيها المبذرون ! جنيهات ، دولارات ، فرنكات بلجيكية ، فرنكات سويسرية .. كلها تتدفق الآن إلى خزائن « بنك فرنسا » !. لا مشروعات الخبراء الماليين ، ولا تقارير العلماء الاقتصاديين ولا التزام التقشف والحرمان .. لا شىء من هذا كله استطاع أن يصلح مركز فرنسا المالى .

ولكن الذى استطاع ذلك هو أحجار قصورنا ومتاحفنا وكنائسنا . شكرًا يا فرنسوا الأول ! شكرًا يا لويس الرابع عشر ! شكرًا يا بابوات

أفينيون ! شكرًا أيها الكرادلة والنبلاء والمحظيات ! إنكم جميعاً تساوون اليوم ثقلكم دولارات ؟ بفضلكم أنتم سيعيش شعب فرنسا هذا الشتاء عيشًا رضيًا . إنكم أنتم بتحفكم وقصوركم وآثاركم أثمن من أى سند من سندات البورصة وأثبت من أى عملة من عملات الأرض .. أنت « السند » القوى الذى لا يهبط سعره أبدا فى سوق .. ويدفع « الفائدة » فى الميعاد ؟

لو عقلت الشعوب لأدركت أن « الفن » مهما يبذل فيه هو أقل الموارد القومية نفقة وأكثرها إدرارا للربح ؟

هذا هو ما يسمونه جنون التبذير فى التحف والفنون عند الدول ! أما النوع الثانى من الجنون وأعنى به جنون المقامرة والمغامرة .. فيتمثل عند الدول فى الحروب . الحرب هى قمار الدولة .. إن جبال الذهب التى تبتلعها هذه « الموائد الخضراء » أو على الأصح « الميادين الحمراء » لا يمكن أن تقف عند حد ، ولا يمكن أن يبقى لها أثر .. لا للمهزوم ولا للمنتصر !

أين انتصارات رمسيس الثانى وفتوحه فى الشرق والجنوب ؟ أين انتصارات نابليون وفتوحه فى أوربا ؟

أموال أنفقت ودماء استنزفت ابتلعتها كلها « الميادين الحمراء » ولم تترك للورثة بعدئذ موردًا يطعمهم فى الأيام السوداء !

لكن .. يا للعجب ! جنون الفن هو الذى يسخر الناس دائما منه ، وهو كنزهم الذى فيه لهم ولأبنائهم مجد ومورد وطعام ..

وجنون القمار هو الذى يغضون عنه أو يهللون له وهو جحيمهم الذى فيه لهم فناء ولأبنائهم هباء .

(أخبار اليوم ١ أكتوبر ١٩٤٩)

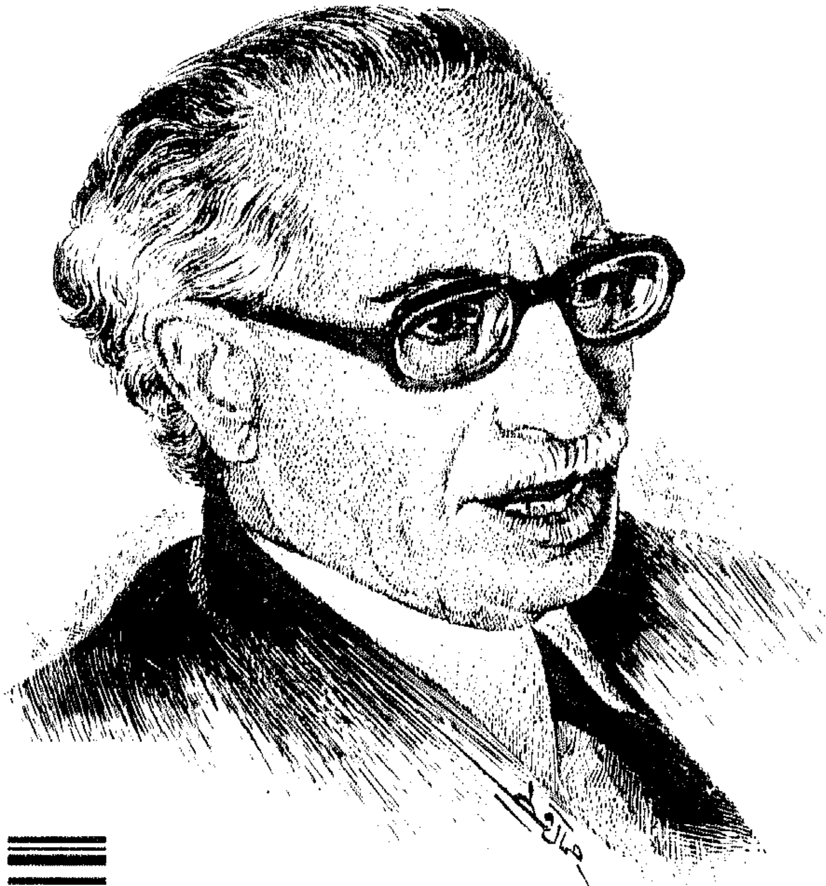
فهـــرس

الموضوع | صفحة

الموضوع | صفحة

رقم الايداع ٨٨/٢٩٢٢
الترقيم الدولى ٠ـــ٣٨٣٠ ـــ ١١ ـــ ٩٧٧

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٣٥٠ قرشا